مشاهير العرب

موسى بن نصير

(فانش الأندلس)

بقلم

محمد عبد الغني حسنين

دارالمعارف بصرى

https://palstinebooks.blogspot.com
مشاهير العرب

موسي بن نصير

(فائيج الأندلس)

بقلم

محمدي عبد الغني حسین

دار المعارف بمصیر
ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر
المولد والنشأة

في السنة التاسعة عشرة من هجرة النبي عليه السلام، وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخليفة الثاني من الخلفاء الأربعة الراشدين، شهدت بلاد العرب مولد طفل كان القدر يُعده ليفتح للإسلام أرضًا جديدة في الشام، الأطراف، بعد أن أدرك الله المسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته في الجزيرة فاتجهوا إلى عرش كسرى في بلاد الفرس، وقُيصر في بلاد الروم.

وأنا كان العرب في أول أمرهم أمة أمية لا تعتن بالكتابة، ولم تعني بالتدوين والتصنيف إلا بعد قرن من الزمان أو أكثر من نشأة الإسلام، فإننا نصادف في توازيج رجال الأمة العربية الإسلامية بعض الاختلاف في الرواية، وليس مرجع ذلك إلى عدم الصدق أو البعد عن تحرى الحق، فإن العرب كانوا أحرص الناس على حفظ أيامهم ووقائعهم وأخبارهم وأنسابهم، ولكن ذلك يرجع إلى أن رواية الأخبار عن طريق المشافهة تعرضها دائمًا للتزيد في الخبر، أو التكرر فيه، أو النقص منه، كما
نشاهده الآن دائماً في الأخبار التي تروي لنا والتي تقع في العصر الذي نعيش فيه، فإنها تختلف باختلاف الرواة، وبطبعتهم في النقل والوصف، وباستعدادهم للمبالغة، وبعوامل أخرى كثيرة تؤثر في حقيقة الأخبار، وتتوسع شقة الخلاف بينها. فليس عجيباً إذا رأينا أن الروايات تختلف في مولد رجل من أعظم أبطال المسلمين مثل موسى بن نصير، كما تختلف في أسرته وفي نسبته. وأغلب تواريخ النشأة الأولى لزعماء الإسلام وقواده وأبطاله في القرن الأول من الهجرة فيها هذه الخلافات التي يجب أن لا ننزعج لها، أو نظن سوءاً بها، بل يجب أن نقبلها على أنها تكون في مجموعة مصدراً من مصادر حياة هؤلاء الرجال، على شرط أن نوازن بينها حتى نعرف صححها من فاسدها، وصادقةها من كاذبها.

وهناك أمر آخر يجب أن نلتفت إليه ونحن نكتب تاريخ رجالنا أو نقرأ عنهم، فإنهم حين يولدون يكونون قوماً عاديين لا شأن لهم، ولا تلتفت الدنيا إليهم، ولا تنطق الأفواه بأسمائهم. ومن هنا لا يهم الناس بأنهم، ولا بالسنوات الأولى من حياتهم المغمورة، فإذا ما بدأت نجمهم يظهر، وإذا ما بدأت أعمالهم العظيمة تم عليهم وتتحدث عنهم، أخذ الناس يهتمون بهم وتأخبارهم. وهنا نجد أنفسنا أمام مراحلين من مراحل تاريخ العظماء: المراحل الأولى من حياتهم، وأخبارها في الغالب غير كافية ولا شافية...
المراحل التي تلي ظهورهم واشتهار أرهم، وأخبرها دائما موضوع الاهيام
بها، والتعليق عليها، والتقليب لها حتى لا تضعع...

وهذا شأنا اليوم مع الفاتح العظيم "موسى بن نصير".
فمن المؤرخين من يقول إنه ينتسب إلى قبيلة من أكبر القبائل العربية
هي قبيلة بكر بن وائل، ومنهم من يقول إنه ينتسب إلى قبيلة لحم، فهو
إذن مجهز، كما يقال للرجل من قبيلة مصر: المضر.
وهذه بعض المؤرخين إلى أبعد من هذا فقالوا إنه لم يكن عربياً
صرح النسب، وإنما كان مولى من هؤلاء الموالى غير العرب الذين وقعا
في أسر المسلمين الفاتحين، فانتسبوا إلى القبائل العربية بطريق "الولاء".
ولكي يؤكدوا هذا القول قالوا إن أبوه اسمه نصير، وأنه كان من السبايا
الذين أسرهم خالد بن الوليد رضي الله عنه في موقعه "عين المطر" الحصينة
المنيعة في الشمال الغربي من الكوفة، حين قاتل خالد بن الوليد العراق ومعه
خمسيئة جندي فقط من أشد شجعان المسلمين الذين أفلما في حروب
المرتدين عن الإسلام بلاء شديدا...
ولا يهمنا أن نلفت هنا إلى رواية أخرى بعيدة في الغربة تقول إن
موسى بن نصير ليس عربياً ولا مشروقياً، وأنه من أهل البربر الذين يسكنون
شمالي أفريقيا، وهم أولئك القوم البدو الذين يتفقون مع عرب الجزيرة
العربية في كثير من الأخلاق والصفات التي أهمها الشجاعة، والمروة
والنخوة، وكرم الضيافة، ورعاية الجار، وحماية الدمار...

الحق أن اختلاف هذه الأقوال في نسب ذلك القائد الفاتح المسلم

لا يغير شيئاً من الحقائق التي عرفت عنه بعد ذلك...

فقد كان والده «نصر» أحد القادة الذين استعملهم معاوية بن أبي سفيان في الجيش الأموي، وكان مقرباً إليه، مكين المنزلة عنده، ولكنه لم يكن ممن يرون توسع شقة الخلاف بين الإمام على ومعاوية، حقاً لدماء المسلمين، وصونا لوحدتهم أن تتصدع، وهنا نرى رجال معاوية يتسابقون إلى الخروج معه، ونرى «نصر» أبا موسى يقعد عن الخروج.

فيدعوه معاوية ويقول له:

يا أبا موسى! ما يمنعك من الخروج معى للقتال، ولعندك يد لا تكافئ عليها، ولم تجزئيها؟

وهنا لا تفقد الشجاعة ولا الصراحة في القول ذلك الرجل الذي قد يعرض حياته للخطر الشديد بهذه الخلافة، فيرد قائلاً:

لم يمكنني أن أشكر نعمتاك بكفرى بمن هو أول منك بشكرى!

فيفلله معاوية:

ومن هو؟

فيجيب نصر في إيجاز حكيم:

هو الله عز وجل...
وهنا لا يستطيع معاوية أن يفعل شيئاً أو يقول شيئاً مع هذا الجواب
الشجاع المملوء بالإيمان الكبير، فيطرق برأسه مليباً، ثم يرفع رأسه وهو
يقول: أستغفر الله! أستغفر الله!
لقد أجاب «نصير» بهذا الجواب الذي قد يغضب معاوية غضباً شديداً، لأنه كان واقعاً بخطأ مقاتلة الإمام على، ولأنه كان من أولئك
القوم الصالحين الذين لا يخشون أن يصيبهم السوء في كلمة حق يقولونها،
ولأنه كان مطمئناً إلى حلم معاوية وسعة صدره، أليس هو الخليفة الذي
قال فيه الشاعر:

تميل على جوانبه كأنه تميل إذا نميل على أبينا
والحق أن معاوية كان عند حسن ظن الرجل به. فلم يغضب،
 ولم يثر، ولم يفقد حلمه، ولكنه استغفر الله، ثم روى عن «نصير»...

وهب موسى بن نصير عربياً صريح النسب أو عربياً بالولاء، فإن
صلة أبيه وصلته هو بعد العزيز بن مروان كانت شديدة إلى أبعد الحدود.
فلكد ترى موسى في بيت عبد العزيز، وكان له عليه دالة، فقد تجهز
مع «أم البنين» بنت عبد العزيز بن مروان حين زفت إلى الوليد بن عبد
الملك الخليفة الأموي، فكانت هي من ناحيتها تشد أزره، وتقرب مكانته
عند زوجها الخليفة الوليد بن عبد الملك، حتى بلغ عنته مبلغًا وصل به
إلى أن عقد له بالولاية على أفريقية - أي غربي مصر الشمالية وما خلفها - سنة ثمان وثمانين من الهجرة.
وطالب هذه الولاية على أفريقية هي السبيل الذي دخل منه موسى ابن نصير إلى بلاد الأندلس بعد أن بعث مولاه طارق بن زياد، فارتفعت راية الإسلام في تلك الأراضي الأوربية الحميدة، وظل هذا الفردوس الإسلامي هناك بضعة قرون، إلى أن غربت شمسه وطواها المغيب...

موسي بن نصير في أفريقية

كانت صلة موسى بن نصير بعد عبد العزيز بن مروان أول طريقه إلى المجد الذي كان ينتظره، فلقد كان ذا حظوة في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان أخى عبد العزيز، كما كان ذا حظوة في عهد الوليد بن عبد الملك، الذي ولي الخلافة بعد أبيه سنة 86 هجرية، والذي كان زوجاً لابنة مولاه عبد العزيز بن مروان. فهو على الحالين يمت إلى الخليفة القائم بأقوى الأسباب.
ففي عهد الخليفة عبد الملك عين موسى بن نصير ليتولى جمع الخراج من البصرة، وكان مالها كثيراً فيها سبق من أعوام، إلا أن المال قل في عهد موسى
فاتهمه خصومه بأنه احتجز الأموال لنفسه، وأنه لم يؤد إلى الخليفة ما يجب في ذمته من مال الخراج. وأحس ابن نصير أن يد الحجاج الباطشة القوية تبحث عنه لتقبض عليه، فخرج من البصرة خائفا يترقب صولة الحجاج الذي لم يصل أحد من ولاة المسلمين صولته. وقصد إلى ملجأ يحميه، وكتف يلجأ إليه، ويجد في ظله الأمن والعافية، ولم يكن هذا الملجأ غير مولاه عبد العزيز بن مروان - أخى الخليفة عبد الملك - الذي كان صاحب مصر وعاملا عليها من قبل الخليفة. ولم يخذل عبد العزيز رجلا من أتباعه كان يطمئن إليه ويثق به، ويستطيع عليه ظل حمايته ورعايته، فركب معه من مصر، وتوجه معه إلى دمشق حيث كان يقيم الخليفة عبد الملك في دار الخلافة الأموية. فسأله قائلا: ما بقي إلا أنتم يا موالى بكرحي تتغلبوا من أموال الخراج ما يصل إلى أيديكم؟ ولكنني يا أمير المؤمنين لم يصل إلى يدى شيء غير ما بعثته إلى دار الخلافة. ولكن الخراج في عامك هذا يا موسى قد نقص مائتة ألف دينار مما كان عليه قبلا، فهي إذاً في ذمتك. ولكن كيف أحاسب - يا مولى - عما لم يجتمع منه في يدي شيء؟
وطال الأخذ والرد بين موسى والخليفة الذي أصر على أن يدفع ابن نصير الغرم كله، فلم يكن من عبد العزيز إلا أن تعهد لأخيه بأن يحمل نصف الغرم عن عبد العزيز، ودفعها راضياً، وعاد بموسى إلى مصر حيث كان يُبعده لأمر آخر غير جباية الخراج.

كان عبد العزيز بن مروان - وهو والد الخليفة الأموي الصالح العادل عمر بن عبد العزيز الذي كان أشبه الخلفاء بعمر بن الخطاب - والياً على مصر أو صاحب ملكها من قبل أخيه الخليفة عبد الملك، وكان رجلاً تقيّاً محذوراً كثيراً واسع العطاء، حتى أزحم الشعراء ببابه يمدحونه، وكان يعطى على موسى بن نصير ويرجوه لأمر كبير للإسلام والمسلمين، فعينته - من ناحيته - عاملاً على شمال أفريقيا ليحمده فتح البربر، ولينشِر الإسلام بينهم، وخاصة بعد حوادث «الملكة البايضاء» التي كانت تقطن بجبل أوراس، والتي كان يخفافها الروم، ويطبعها البربر، حتى دوخت القائد الفاتح حسان بن النعمان البكرا الذي كان قد عينه الخليفة عبد الملك والياً على أفريقيا.

وحدث هذه الكاهنة الملكة الأفريقية في شيء من الغراب التي توجب علينا أن نقف عند فليلا، قبل أن ندخل في حديث موسى ابن نصير وأخباره في بلاد البربر. فهي امرأة مقاتلة من طراز نادر في التاريخ، التقت مع العرب المسلمين في ليلة قضى الفرسان فيها الليل
كله على سروج الخيل، لم تغمض لهما عين. وفدت في المسلمين قتلا ذريعا، وكانت تجمع للجيوش بعد الجيوش كأنها تجمع من خلائق لا عدد لها، حتى اضطر حسان بن النعمان أن يكتب إلى الخليفة عبد الملك قائلاً: «إن أمّ المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية...»

وشر ما كان في هذه الكاهنة الحربية هوا الدهاء والدمار، فقد جمعت رجلاً من البربر قائلة له:

«إن العرب إذا طلبون من إفريقية المدن، ويلتمسون الذهب والفضة، ونحن إذا نريد منها المزارع والمراعي! وأرنا عندي أن نخرج بأيدينا بلاد إفريقية كلها، حتى يتأس منها العرب، فلا يكون منهم رجوع إليها إلى آخر الدهر...!»

أما دهاؤها فيظهر في الحادثة التالية: فقد أسرت ثمانين رجلاً من أشداء رجال المسلمين في جيش حسان بن النعمان، وأحسنت إليهم في الأسر ثم ردتهم مكرين إلى معسكر العرب وأستبكت عندها واحداً فقط من هؤلاء الرجال هو «خالد بن يزيد»، وأخذت تتودد إليه وتلطف له ليدله على عورات المسلمين، ولكن هيهات للعربي المؤمن أن يُشترى، بالله أو بما هو أغلب من المال! لقد استحال هو ليكون عيناً للمسلمين على الكاهنة وعلى جيشها من البربر، فقد جاءه رسول متىكر
يثق به حسان كل الثقة ويحمل معه كتاباً منه، واحتال الرسول حتى وصل إلى خالد وأوصل إليه الكتاب، فقرأه خالد، وكتب في ظهرة العبارة التالية، يستحث بها حسان بن النعمان على مواصلة القتال حتى يتم الله أمره، وينصر جنده: "إن البربر قوم متفرقون، مفككون، لا نظام لهم، ولا رأى عندهم، فأطو المراحل، وجهد في السير...".

ولكن إذا كان الرسول قد دخل بالكتاب سلماً إلى خالد، فكيف يخرج من عنده برد الجواب؟ والعينون قد تكون مبتوأة له بالمرصاد؟ لقد احتال خالد فجعل الكتاب مطويًا في خزية ووضعها في رحل الرجل كأنها بعض زاده على الطريق، ووجهه إلى الأمير حسان بن النعمان. ولم يفارق الرسول مكان خالد بمدى يسير، حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها كأنها بعض بنات الحسن، وهي تضرب صدرها بيدها وتقول في صراخ شديد:

- "ويلكم! يا مشير البربر! لقد ذهب ملككم فما يتزود الناس به من الطعام!" وتقصد بذلك تلك الرسالة التي دسها خالد في لباب الرغيف الساخن.

وأخذ الناس يهبون في كل طريق، ويتشببون في كل مسكل، لعلهم يقضون على الرسول الذي يحمل رسالة فنائهم، وكتاب مقاتلتهم، ولكن الله ستره حتى بلغ حسان، وقد بلغ السرور منه كل مبلغ لأنه أوصى
رسالة، ولكن آه لو علمنا على أية حال وصل هذا الكتاب؟!
لقد كسر حسان الخبزة، فوجد الورقة في طيها، ولكنه لم يجد الكتابة عليها، لأن حرارة الرغيف الساخن قد أفسدته! وفتح معالها! وعُبِّث حاول حسان أن يبعث الرسول ثانية ليأتيه بالجواب من جديد، فقد أصر الرسول على الرفض قائلاً:
لا يامولاي! إن المرأة ساحرة ماكرة، وكاهنة عارفة، ولا يُحَت عليها شيء من تدبيرنا...! ولن أعرض نفسي لسحرها مرة ثانية!

في بلاد البربر

3

كانت أعمال موسى بن نصير في بلاد البربر بشمال أفريقيا سلسلة من الشجاعة العربية والبطولة الإسلامية المنقطعة النظر. وكان له في كل محلة ينزل بها ظفر لا مثيل له، حتى ولو كان في قلة من رجاله المؤمنين بربهم، المشوقين إلى نشر دينهم، ولو ظفروا في سبيل ذلك بالاستشهاد في سبيل الله. وماذا تكون الشهادة في سبيل الله في نظر أولئك الذين تجردوا من شهوات الدنيا ومطاع المادة، لنشر كلمة الله عالية في الأرجاء؟
فتوجه إلى ناحية زغوان وما حواليها من بلاد وقرى، وكان بينها وبين مدينة القيروان مسيرة يوم كامل على ظهور الإبل، وكانت حكماً حكيناً للبربر يجتمعون فيه ويشنو الغارات منه، فبعث إليهم موسى خسائج عفاريس من أشد رجاله بأساً، وأقواهم قلباً، وأصابهم على القتال، وما هي إلا ساعات حرجة، ولحظات شديدة البأس حتى فتحها الله عليهم، وعستسلم أهلها، ووقع منهم في يد العرب الفاتحين عشرة آلاف من السبايا. فكان ذلك أول سبي دخل مدينة القيروان منذ أن تولى أفريقية موسى بن نصير.

وأخذ ابن نصير يوجه البعوث والسرايا من مدينة القيروان التي اتخذها قاعدة حربية له، ومركزاً للإمداد والتموين والتعبئة كما نقل اليوم، وكان ابن نصير رجلاً بارك الله له في الولد، وأكثر له منهم في العدد، فكان يجعلهم دائماً على طلائع بعوثه، وثوقاً منهم بهم، واطمئناناً منه إليهم، وكان في هؤلاء الأولاد دائماً أسرار من أبيهم، لأن الولد – كما يقول المثل العربي – سر أبيه. فوجه أحدهم المسمى عبد الله إلى بعض النواحي بأفريقية، يقاتل أهلها على الإسلام، ويدعوهم إلى دين الله، فكانت الكثرة الكثيرة منهم تنخرذ أمام القلعة المؤمنة المسلمة، حتى لقد أتاه ولده عبد الله هذا بمائة ألف رأس من السبي، وأتاه ولده مروان بمائة ألف مثلاً...
وبلغت الغنائم جدًا أولاً عهد للعرب الفاتحين بِمثليه، ولم يكن ذلك
على سبيل المبالغة في الوصف، أو التكرر في العدد، فقد قال أكثر
المؤرخين إن سبايا موسى بن نصير لم يسمع بِمثليها في الإسلام!
وبلغت كثرة السبايا والغنائم حدًا جعلت عبد العزيز بن مروان
 نفسه صاحب مصر وأفريقية من قبل الخليفة الأموي يشك في صحة
الأعداد، وكُرَّة التعداد! وأنتم تعلمون حكم الإسلام في تقسيم الغنائم،
فقال تعالى يقول في سورة الأنفال: ( واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن
له خمسه، والرسول، ولدئي القرى، واليتاى، والمساكين، وابن السبيل إن
كنتم آمنتم بالله، وما أنزلنا على عبده يوم الفرقان، يوم التقوى الجمعان،
والله على كل شيء قدير) فلا بد أن يرسل الخمس إلى الواحد لتوزيعه
على مصارفه كما أمر الله. ولا بد أن ابن نصير يعد الغنائم ليخرج نصيب
الله منها كان مقدار الخمس يؤمن ستين ألفًا.
وأخذ ابن نصير يكتب إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بالفتح
المبين الذي فتحه الله عليهم، ويعمله بمقدار الخمس من الغنائم وهو
ستون ألفًا، ولكن كاتب الرسالة هم في العدد، وأخطأ في كتابته،
فجعله ثلاثين ألفًا بدلاً من ستين. ووصل الكتاب إلى عبد العزيز بن
مروان في مقامه بمصر التي اتخذها دارًا للولاية، فلما قرأ أن عدد الخمس
ثلاثين ألفًا استذكره، وظن أن في العدد وهماً وخطأ من الكاتب، لأنه كان
أكثر بكثير مما كان يتصوره! فاستدعى كاتباً له وأملاه الرسالة الآتية إلى موسى بن نصير:

"إنه قد بلغني كتابك، تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس، فاستكثرت ذلك، وظنته وهماً من الكاتب، فكتب بالحقيقة!؟! وحمل البريد رسالة عبد العزيز إلى ابن نصير يطوى بها السهول والأبلاط، ويخرج بها الجبال والأودية، حتى بلغ مكان القائد موسى بن نصير وسلمه الرسالة، وفضها ابن نصير وقرأها، وعلم أن عبد العزيز يستكثر ثلاثين ألفاً، فما باليه لو علم أن العدد الحقيقى الذي أخطأ فيه الكاتب هو ستون ألفاً؟

وهنا أملى موسى على كاتبه الرسالة الآتية: "قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير! وحقيقة عدد الخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً، بل وهم!"

وحمل الرسول كتاب موسى عادياً به إلى ابن مروان، فلما فضيه وعلم أن حقيقة العدد ستون ألفاً لاثلاثون، بلغ منه السرور مبلاغاً عظيماً على ما أنعم الله به على المسلمين من غنائم، ولكن سروره على كل حال لم يذهب شدة اندماجه وعظيم تعجبه لهذا العدد الهائل الذي كان يستكثر نصفه أول الأمر!.

كانت هذه الحادثة سبباً في ارتفاع مكانة ابن نصير عند مولاه"
عبد العزيز بن مروان من ناحية، وعن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من ناحية أخرى، وقد استغلها عبد العزيز بن مروان ليسوغر بها موقفه من عزل القائد حسان بن النهبان وتولية موسى بن نصير مكانه.
فقد كان عبد العزيز كتب إلى أخيه الخليفة عبد الملك يطلب منه موافقته على خلع حسان وتولية موسى على شعال أفريقية، فجاء الكتاب من الخليفة عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز يقول فيه: «قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان، وتولية موسى، وقد أمضى للك أمير المؤمنين ما كان من رأيك، ولاية من وليت...» فلما اتسع الفتح وزادت الغنائم على يد موسى كتب عبد العزيز إلى أخيه الخليفة يعلمه بذلك، ويزف إليه البشري بهذه الفتحة العظيمة، بل أبلغه نص كتاب موسى إليه...

وهنا أيقن الخليفة عبد الملك أن أخاه عبد العزيز بن مروان صاحب مصر وأفريقية يعرف تمام المعرفة كيف يصتنع الرجال، ويكشف الأبطال! واتخذ الخليفة الوسائل التي يحصل بها على نصيب الخلافة من الغنائم، فوجه من دمشق بعض رجاله وأتباعه ووكل إليهم أن يقبضوا الخمس من موسى بن نصير على ما ذكره في كتابه. فدفع موسى ذلك للرسل الموكلين بتسليم اليوء، وزادتهم ألفاً من الرؤوس على سبيل الهدية إليهم...

* * *
استمر موسى بن نصير يواصل فتوحه وغزواته ببلاد البربر، وكان
أمامه قواتان تقاتلانه في شهائل أفريقيا: البربر حين لم يدخلوا في الإسلام ولم
يدينوا بالطاعة، وهم قوم أشداء في الحروب، صابرون في المواقع.
والروم، وهم قوم كان له في بلاد البربر شأن كبير قبل الإسلام، وكثيراً
ما خرجوا في المعارك الكثيرة، والقوة العظيمة للقاء العرب الفاتحين،
حتى لقد قتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً من التابعين ورؤساء العرب
المجاهدين، يوم أن التقوا معهم في برقة لقاء عنيفاً قبل ولاية حسان بن
النعمان، واستشهد زهير بن قيس في المعركة، وهو قائد عرب شجاع،
فكانت مصيبة الخلافة عبد الملك فيه لا تقل عن مصيبة المسلمين في القائد
الفاتح عقبة بن نافع من قبله سنة 63 هـ، حينًا أطبق عليه الروم في جماعة
قليلة من عسكره قتلهوا...
ولم تصادف موسى بن نصير في طريقه عقبة إلا أزاحها من سبيله
وتغلب عليها، وكان يستبشر بما يقع أمامه من الطوالع التي تدل على
حسن حظه، وصعود نجمه، فقد ذكروا أنه في المواقع الأولى له في
أرض البربر نزل مع رجاله يستريحون في بعض الطريق بعد أن أضناهم
طول المسيرة، وعناية الرحيل، وحرارة اللقاء مع الأعداء. وبيئته هم يتكونون
نسمة منعشة بالنفس في حرارة الصحراء إذا بعصفور صغير قد حملته
الريح وقذفت به على صدره، وهو يضطرب بحناجه ويتخفق بهما فوق
قلب الرجل الحریء، فأخذته موسى وذبحه كما أحل الله للطير أن تذبح، ولطخ بدمه ثيابه من فوق صدره، ثم نتف ريشه وطرحه على نفسه.

وقال: هو الفتح! هو الفتح ورب الكعبة...!

وكأن ذلك كان إيداناً بما تلاه من الفتوح العظيم. فقضى إلى ولاية "سجومه" وقتل ملوكها، وأعمل السيف في أميرائها، وآن لأبناء "عقبة ابن نافع" أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم، فقتلوه من أهل هذه البلاد سبعة رجل من كبار رجالهم وأهل الرأى فيهم، ولم يغدوا السيوف في الرقاب إلا بعد أن أمرهم موسى بأن يكشفوا عن القتال، فكفوا...

ومضى موسى بن نصير إلى بلاد هواردة، وزناتة، وكثامة من أرض البربر فأغار عليهم، وقتل منهم، وأخذ سيباً من رجالهم بلغت عدته خمسة آلاف رأس، وكان فيهم "طامون البربر"، وهو رجل عنيد لم يشرح الله صدره للإسلام فاستمر في عناده، وظل على المخالفنة حتى وقع أسيراً في يد العرب، فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان في مصر، ولكنه قتل في الطريق عند بركة من الماء قريبة من قرية "عقبة"، وظلت هذه الراكة تحمل اسم "طامون" إلى ما بعد الفتح العربي للمغرب ببضعة قرون.

ولأصبح موسى صاحب سلطان في أفريقيا، تهابه البربر، وخشاه الروم، ولم تجد "كتامة" بدأ من الاعتراف له بالطاعة فقدمت عليه
في جمع من شيوخها ورؤوسها يعلنون الخضوع له، ويقرون بالسلطان عليهم، فولى عليهم رجلاً منهم، وأخذ رهائن من خيام قومهم وأشراف رجالهم.

وظل موسى ممنعاً في الفتوح والغارات لا يصده هول، ولا تقف في طريقه عقبة، ولا تثبت جموع البربر والروم مهما كثر عددها، وإذا بالأنباء تأتي من المشرق بوفاة الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 86 ه وتولى ابنه الوليد بن عبد الملك الخلافة من بعده.

وهنا بدأ نجم ابن نصير يلمع من جديد، فهو ليس غريباً على الوليد ولا بعيداً من عنايته، وإذا كان حاميه ونصيره عبد العزيز بن مروان قد أدركته المنتهية قبل ذلك بعام واحد - أي سنة 85 ه - فإنه سيجد عند ابنته «أم البنين» زوج الخليفة الجديد حامياً له ونصيراً، ألم يتجه مع أم البنين هذه حين زفت إلى الوليد بن عبد الملك؟ ثم أليست هذه وقد صارت امرأة الخليفة أول الناس برعاية موسى بن نصير، حفاظةً منها على قديم رعاية أبيها له، وجعل عوارفه عنده؟

لقد كتب الوليد بن عبد الملك عهداً بأن يتولى موسى بن نصير أفريقيا والمغرب، بدلاً من عمه عبد الله بن مروان الذي قطعته الولاية عنه، وهكذا انتقلت الولاية على هذه البلاد الشاسعة، والممالك الواسعة إلى موسى بن نصير.
 وهنا زادت الأقدار عبثاً جديداً على العبء الذي كان على كاهل موسى بن نصير، وألقت عليه حملاً ثقيلاً بإضافة بلاد المغرب إلى ولايته فوق ولايته على أفريقيا. لقد كانت أفريقيا تبتدئ من بركة وبني تحتي إلى حدود مدينة القيروان، أما بلاد المغرب فتبدأ من القيروان وتغرب في مساحتها شاسعة من الأرض لتنتهى إلى أقصى المحيط، حيث تلتقي رمال الصحراوية بعمرات الماء...

وتقدم موسى نحو الغرب، ولم يجد أمامه حين خرج من أفريقيا جيشاً يقاومه، ولا عدوًا ينهض له. لقد كان البربر تركوا البلاد تنعى من بناها وفروا إلى الغرب خوفاً من لقاء العرب، وكأنهم رضوا أن تدلى كلمتهم على العقاب. وأن يطعنوا من الخلف لا من الأمام! فسار موسى بجيوشه خلفهم، وأخذ يقتل فيهم قتلاً ذريعاً، ويسبي منهم خلقاً كثيراً.

ورأى البربر أن لا مفر من الهزيمة لهم ووقوع الدائرة عليهم، وأتهم أمام عدو لا طاقة له بقتاله، ولا صبر لهم على نزاهله، فطلبوا الأمان من موسى، فأمهم على أنفسهم وأموالهم، وولى عليهم والياً. ومضى في الفتح إلى الغاية حتى بلغ وهر طنجة في أقصى بلاد المغرب، على المضيق المعروف إلى اليوم بمضيق جبل طارق. ولا استوطى موسى لنفسه من هذا الفتح العظيم والغزو الكاسح أراد أن لا يبعد في هذه الأرض لو كان
وراءها غاية للإبعاد! فعزم على العودة ثانية إلى مقره بأفريقيا وترك أحد مواليه المسمى طارق بن زيد والياً على أرض طنجية وما واقعاً من البلاد. وحين نسمع هنا اسم طارق لأول مرة فإننا سنقلبه بعد ذلك مرات ومرات، لأنه هو القائد المسلم الذي حمل أول معركة الفتح الإسلامي للأندلس حين وجهه موسى بن نصير ليحمل راية الإسلام في تلك البلاد... 

وهل يترك موسى بلاد المغرب كلها عائداً إلى أفريقية من غير أن يضع فيها الأساس لتعاليم الإسلام، إنه لم يكن رجلاً مغامراً ولا ناهباً ولا جمعاءً للأسلاسل. إنه كان من أولئك التابعين الذي اتبعوا صحة الرسول بإحسان. إنه كان داعياً إلى دين الله في بلاد استقرت فيها عبادة الأوثان، وحكم الكاهنات والكهان. 

وهذا ترك عند البربر في بلاد المغرب بضعة عشر ألفاً من العرب، يعلمونهم القرآن، ويؤدبونهم بالآداب الإسلام، ويفقهونهم بالدين والأحكام. عاد موسى بن نصير إلى أفريقية لا ليبدأ، ولكن ليضع أسس الإدارة الإسلامية على أساس صحيح. إنه هنا يقيم دولة جديدة خرجت من الظلام إلى نور الإسلام، إن جيشه قد كثر عدد رجاله بمن انضم إليهم من البربر الذين دخلوا في الدين الجديد، وهم يحتاجون إلى الأعشاب والمربات. 

وهننا بدأ ابن نصير يسك عملة من النحاس والبرونز، ضربها في أفريقية
ليوزع منها عطاء الجنود، بدلاً من تلك النقود والعملة الرومية التي كان يستعملها الولاة قبله، وبهذا حل مشكلة العملية المحلية على أسهل الوجه، وأتاح للعرب الفتحين صناعة جديدة بضرب نقودهم بأيديهم، تحمل على وجهها اسم الله العلي الكبير واسم نبيه محمد عليه السلام، بدلاً من تلك العملات القديمة التي كانت تحمل وجه الرومان، وأسيا الرومان. واتجهت آمال ابن نصير إلى البحر المتوسط الذي كان يسمى بحر العرب أو بحر الروم. إن مطاعنه لا تخف عند حد الأرض، ولكنها تتمتد إلى ما وراء الأمواج، وهنا أرسل حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة، وهي إلى الشرق من بلاد الأندلس، وجعل ابنه محمد عبد الله قائداً لهذه الحملة، فغنموا من هذه الجزيرة غنائم لا تحصى، وعادوا منها سالبين. ولاشك أن هذه الحملات البحرية كانت بمثابة جس النبض لغرض آخر كبير. وتأتي الشداد دائماً إلا أن تلم بالرجل العظيم، لتتحزن صبره، وتختبر قدرته على الثبات والإيمان والاطمئنان، لقد كان أكثر مدن أفريقيا خراباً من كثرة ما توالى عليها من الغارات، واختلف عليها من الحروب وأصيبت البلاد بقحط شديد، كما أصيبت بما يتبع القحط دائماً من غلاء فاحش، وتكاكل على الزاد، وتهافت على الأرزاق، وهلع في النفس. وكان هذا الامتنان عسيراً على موسى بن نصير، فإذا يصنع بالأوقات نادرة، والأرزاق شحيحة أو معدومة، والقلوب في جزع شديد؟ إنه هو
وقفه ورعيته المسئول عنها أمام الله، لا أمل لهم إلا إفن الاتجاه الذي يفرج الكروب، ويزيد الخطوب.

لقد أمر القائد الناس بالصوم والصلاة والدعاء إلى الله، ونسان ما بينهم من أحقاد النفوس، وإصلاح ذات بينهم حتى تتطهر قلوبهم بالطاعة، وتصقل بالحبة، وترق بالصفاء، وحينئذ يجاب منهم الدعاء.

خرج موسى بالناس جميعاً إلى الصحراء لصلاة الاستمئذة، وبينهم الشيوخ والشباب، والآباء والأمهات، والولائم والأطفال، حتى الدواب والماشية والدواجن... وفرق بين الأمهات والأبناء من الناس والحيوان، فوقع البكاء، وارتفع الصراخ، وتعالي الصجيب، حتى كأن ذلك يوم الحشر الذي تدهل فيه كل مرضعة عما أرضعت... وأقام الجميع على ذلك إلى منتصف النهار.

ثم قام موسى إلى الصلاة فأم الناس، وهم خشوع بين يدي الله، في موقف تلین فيه القلوب. وخطب الناس خطبة لم يذكر فيها اسم الخليفة الوالي بن عبد الملك، كما تقضى بذلك سن الخطب في الإسلام. وإذا بصوت يرتفع من وراء الصفوف قائلاً:

– يا ابن نصير! ألا تدعو في هذا المقام لأمير المؤمنين؟

فريد ابن نصير على صاحب الصوت قائلًا:
- هذا مقام لا يدعي فيه لغير الله تعالى، ولا يذكر فيه غير الله الكريم).
ولم ينبغي الله دعاء الداعين، لأنه وعد في محكم آياته بقوله: «وإذا سألك عبادي عنٌ فانى قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان» وما هي إلا حظات حتى استجاب الله دعوات هذه النفوس الظالمية إلى رحمته، المنعطفة إلى قطرة من جوده. فنزل المطر، وسبت الناس حتى رووا ورويت ماشيهم ودواهم وحيواناتهم، وثبت الزرع، وجدت الأرض بالخير، فطلعت التمعر، ورخت الأسور.
فلورندة الحسناء

هناك على الشاطئ المقابل لبلاد المغرب تقع في القارة الأوروبية بلاد تحيط بها المياه من كل جهة إلا جهة واحدة، حيث تفصلها فرنسا عن جبال البرتغال أو البرانس. وتسمى هذه الأرض الواسعة شبه جزيرة إيبيريا وتتكون اليوم من دولتي إسبانيا والبرتغال، وقد سماها العرب باسم الأندلس. وسواء أسس «الأندلس» باسم جماعة من الأمم نزلوا من قديم يفاوض أهلهم، أو باسم الفاندالس الذين تحقوا من الشمال حتى بلغوا مضيق جبل طارق في القرن الخامس قبل الميلاد، فإن لفظة «الأندلس» غير عربية الأصل، ولم يستعملها العرب إلا في الإسلام.
وكانت بلاد الأندلس - قبل الفتح العربي - يسكنها جماعة من القوط الذين غلبوا هذه البلاد على أمرها بعد أن حاربوا الرومان وحاصروا روما نفسها في القرن الثالث الميلادي، ثم كونوا بعد ذلك مملكة، وجعلوا مدينة «طليطلة» عاصمة ملكهم، ثم أخذت العواصم تنتقل بين قرطبة وأشبيلية، وماردة.

وكان آخر الملوك الشرعيين لمملكة القوط في الأندلس علي عهد موسى ابن نصير رجل اسمه «غيطشة»، وكان من بيت الملك، وانهى إليه عرش الأندلس بطريق الوراثة، فلما مات غيطشة ترك خلفه أولاداً صغاراً لا يمكنهم صغر سنهم من تولي أعباء الملك بعد أبيهم. وكان هناك رجل مقرب إلى غيطشة أثير المكانة عنده، وكانت مطاعمه لا تنتهى عند حد فانه فرصة وفاة الملك وفرصة أولاده الصغار، واستمال إليه جماعة من الرجال الذين مالوا معه في فترة تهدف إلى انتزاع الملك من هؤلاء الأبناء، ونقله إلى يديه هو، وكان اسم هذا الرجل لذرير، أو رذيرق. ونجح لذريرق في الانقلاب الذي أحدثه في المملكة، وتولى مقاليد الحكم، وجلس على عرش الملك مع أنه لم يكن من أبناء الملك، ولم يكن صحيح النسب في القوط. وأصبح بحكم نجاح المؤامرة ملكاً يعرف الناس جميعاً في الأندلس أنه مغتصب للعرش من أصحابه، وسارق للناتج من أربابه، ولكنه هو لا يرى في ذلك إلا لسان القوة التي قد تجعل الباطل
حقاً، وتحول الكذب صدقاً...

لم يكن لذراع ملكاً حسن السيرة، فلم يكف أن اغتصب الملك، وانتزع التاج، بل أفسد سن الحكم، و تعالى على بقية الملوك والأمراء الذين من حوله في الأندلس. ولم يكفه ما أساء به إلى أولاد الملك غيظة وانتزع الملك من أبديهم، بل أساء إلى (يوليان) الذي كان عاملاً لذراع على ميناء سبطة، على الشاطئ الأفريقي في مواجهة جبل طارق بالأندلس.

وكان «سبطة» في ذلك الحين ثغراً إفريقيا تابعاً لصاحب الأندلس وكان يتولى أمرها نائب عن ملك القوت يقيم فيها أكثر الوقت، وينقل منها بعض الوقت إلى عاصمة الأندلس ليكون على مقربة من البلاط ينقرب إليه، ويقدم الطاعة له، ويستمد الولاية منه. ولم يكن المدى بعيداً ولا الحجاز واسعاً بين الشاطئ الأفريقي والشاطئ الأوربي، فهناك ذلك المضيق الشهير المعروف ببوغاز جبل طارق، حيث تقع مدينة سبطة ومدينة طنجة الأفريقيّة، في مواجهة صحرة جبل طارق الإسبانية.

عاش لذراع في القصر الملكي بطليطلة عيشة الملوك، وجعل نفسه زعيماً الملوك والأمراء بالأندلس، ففتح أبواب قصره الشاهق العظيم لأبناء الأكابر والقادة الذين كان من عادتهم أن يبعثوا أبناءهم إلى بلاط العاهل الأكبر لينشؤوا فيه نشأة ملكية، يزيدها سمت الإمارة وجلال الاستقلال...
بالقصور، ولينالوا هناك من شرف النشأة في بلال الملك ما يشبه ذكرهم، ويعلى قدرهم، ويكون موضعاً لتفاخر آبائهم واعتزازهم بهم، وليتعالوا هناك من أدب الملوك، ورسوم القصور، وتقليد البلاط ما يجعل العيون تطلع إليهم، والرغبة تتعلق بهم، وهناك في ذلك الجو الملكي الفاخر يلتقي أبناء الأشراف بنات الأشراف، وتمكين الأواصر بينهم، وتزيد الألفة بينهم.

وكان الملك يفعلون ذلك رغبة منهم في تألية قلب الأشراف حولهم، وتمكيناً لطاعتهم والإخلاص لهم، حتى يكونوا أقوى بطاقة للملك، يصاول بهم أعداءه، ويضرب بهم خصمه، ويستمد منهم المعونة إذا ما دعت حاجة إلى العون. وكان الملك فوق ذلك يبالغون في إكرام الأبناء النازلين برحبهم، فيحملون أعباءهم، ويولون تجهيز الإناث منهم إلى أزواجهن، ويخصصون بالكرامة التي كان يحرص الأشراف على أن ينالوها في رحاب القصور.

وكان ليوليان صاحب «سبتة» فتاة جميلة، بارعة الحسن، آشرة اللحظ، فاتنة الحديث. وأراد أبوها أن يبعث بها إلى بلال الملك لذريق جرياً على مألف عاداتها. وركبت الفتاة البحر إلى الأندلس وأسلمتها أبوها إلى القصر جوهرة من أزغال جواهره، ودكرة من أعمد درره، ونشأت فلورزدة ابنة يوليان بين أحضان القصر في طليطلة كما تنشأ.
الزهرة وتنمو في جو من الحفاوة والرعاية البالغة. وكانت ظاهرة كالزينة، نقاء كالنسيء، بريئة كالعفة، بل كانت هي كلها العفة مجسمة في فتاة.
وفي يوم صافٍ ذهبت فلوروندة إلى بركة من الماء ملحقة بالقصر. محجوبة عن العيون المتطلعة لتبّرد من حرارة اليوم. وتعرّفت الفتاة من ثيابها، ولم تكن تدرّى أن عينها فضولية تكاد تلتهمها. تلك هي عين لذريق الملك الخائن للأمانة، الذي لا يعرف كيف يصون أعز ودائع الآباء...

وكان ما كان بين لذريق وفلوروندة الحسناء، مما أثار سخط والدها يوليان، الذي تلقى منها رسالة خفية سرية تعلمه فيها ما كان من شأن لذريق الخائن معها، وما كان من تلوثه أصول الضيافة الملكية وقواعد الشرف الرفيع. وفضل يوليان رسالة ابنته التي تفيض بالعار والخزي، وانتهاك العرض وابتذال الحرمات، وأخذ يقروها والدم يغلي في عروقه، والشرير يدقّح من عينيه، ثم انتفض قائلًا في ثورة البركان:

- ودين المسيح لأزيين ملك هذا الفاجر، ولأعلن على تقويض سلطانه، وتحطيم أركانه، ولأحفر تحت قدميه...

ولم ينتظر يوليان طويلاً في "سبيتا" حيث مقر ولايته الشاطئ الأفريقي، فاتخذ سبيله إلى البحر في مركب من أجود مراكب التي كانت تروج وتجيء دائمًا بين العدوانين: الأندلسية والمغربية. وكانت
الريح عاصفة، والجو قاسًاء، والفصل في عسفان الشتاء، ولكنه لا يستطيع أن يصبر إلى اعتدال الجو وموئاة الريح، لأن أمر ابنته الحسناء قد شغله شغلاً شديداً. وسخطه سخطاً ما عليه من مزيد، فهو قلق لا يطيق الانتظار.

ولم تكن ثورة يوليان لشرفه إلا بعض الخلاف الأندلسي التي زادها الإسلام فيهم بعد الفتح، وكان اختلاف أهل العدوتين بالزيارة والاختلاط قد أكسب أهل الأندلس بعض المكارم العربية، والحمية التي حملها البربر في أصلابهم من ميراث عرب البادية.

وركب يوليان ذلك الجزء الضيق من البحر الأبيض المتوسط، المعروف ببحر الزقاق، والذي سمى بذلك كما يدل عليه اسمه لضيق مسلكه بين القارتين، ورسى سفينته على الشاطئ الأندلسي، حيث اتخذ سبيله في البر إلى طليطلة، قلب المملكة القوطية، ومقر الملك لدريج ومقام ابنته فلورندة.

ودخل الحاجب على الملك يعلمه خبر وصول يوليان. واتقى في غرفة الاستقبال بالقصر الملكي رجلان: واتر، وموتر، وجارح مجروح. وابتدر لدريج ضيفه بالسؤال قائلاً:

ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت من العام يا يوليان؟ لعل الأمور في «سبتة» على ما يرام!
وأجاب يوليان وهو يخفى غيظه ويسفر حفظه:

- خيراً أيها الملك، غير أن زوجتي تعاني في سبعة ألمًا شديداً وعيلة قاسية لا تستطيع معها حراكة، وقد اشتد شوقها إلى رؤية فلورندة، لأنها تخشى أن تموت قبل أن تتزود منها بنظرة وداع، وقد ألحت على في إحضارها، ولا أريد أن أحطم قلبي بحرمانها رؤية فتاتها العالية وهي في سرير مرضها، وقد تكلفت هذه الرحلة الشاقة في مثل ذلك الجو القارس حرضاً على أن أبلغ الأم أمنيتها، وأحقق لها رجاءها... لعل مولى الملك مسعفي بذلك، أو لعله بما فطر عليه من الكرم يشفي نفسها أم معدبة وهي بين الحياة والموت!

وهل يجد لنزريق أمام هذا الإلحاح من الوالد الجريح المتظاهر بالجهل مفرأً من قبول ما طلب يوليان، والذين له بحمل فلورندة معه إلى أمنها لتنزود منها بلقاء أخير.

وجهز لنزريق الفتاة بأنه ما يستطيع أن يقدمه ملك في مثل ثراه، ولم يدع شيئاً من ثمين الهدايا إلا خلعه عليها وعلى أبيها، ولكنه لم ينس أن يوصيها بكتبان الفضيحة، وعدم إفشاء السر... وما درى المسكون أن الذئ حمل أباه على هذه الرحلة الشاقة هو ذلك السر الذي صار

عند الأب غير مكتوم...

وخرج يوليان وابنته فلورندة معه، وهو يضمر في نفسه أمرًا لم يفصح
أحمد عنه، ولا صارح أحداً به، ولكنه كان على كل حال أن ينتقم لشرفه حين تحين ساعة الانتقام...

وكان من عادة يوليان أن يهدي من حين إلى حين طيوراً وبزاة وصقراً إلى لذريق الذي كان يجب جوارح الطير ويهوى الصيد بها إلى حد بعيد. وما كان يوليان يضن في سبيل ذلك بأن يتكلف إحضار البزاة والطيور القارهة من كل بقعة من الأرض ليطرف بها الملك لذريق، فلما تقدم الملك لوداع يوليان هذه المرة قال له:

- لا تنس يا يوليان إذا قدمت علينا في الزيارة القادمة أن تطرفنا بعض الطيور التي تعودت إتحافنا بها وإهداءها إلينا، فإنها أحب الجوهر إلينا، وأثرها عندنا!

وأما كان أسرع يوليان حين أجاب:

- وحق المسيح يا مولى لأوردن عليك طيوراً وبزاة لم تسمع بمثلها قط!!

وقبل لذريق هذا الجواب على علاته كأنه رضي فيه بريء...

ولكن، هل كان يقصد يوليان بهذا أنه سيورد على لذريق والقوط رجالاً من العرب ينقضون عليهم كالصقور الجوهر؟ وهل كان يوليان يسر في نفسه أمرًا بأن يلتحا إلى العرب والبربر في بلاد المغرب ليستعديهم على الملك لذريق، وعلى مملكة لذريق كلها، وعلى ملك القوط كله...
في جزيرة الأندلس ؟ وهل كان ذلك سبيله في الانتقام لشرفه المُسلوب
وعرضه المهتك من الملك لنذر ؟
ذلك ما سُنِّرله عما قليل 

في الطريق إلى الأندلس

نحن الآن في أرض المغرب وعلى الشاطئ الأفريقي بعد أن حملت
السفينة يوليان وابنته فلورندة عائدين إلى مقرهما بثغر سبتة . وكان يتردد
على سبتة وما حولها ببعض العرب الذين كانوا في حملات موسى بن
نصر على بلاد البربر ، والذين استباقهم القائد الفاتح في تلك البقاع
النائية ليعلموا البربر قواعد الإسلام.

وخرج يوليان مرة في بعض شئونه فاختى بعري تم عليه ملابسه التي
تميّزت من ملامح البربر ، وإن كانوا الآن يجتمعون في الدين الجديد
كما اجتمعوا بالأمس في فضائل النفس ومكارم الخلق ، التي هي ميراث
البوادي التي لم تفسدها الحضارات.

وسأل يوليان ذلك العربي عن القائد موسى بن نصر وعن مقامه
الآن في أيأرض ، فأجابه العربي أنه يقوم بأفريقية التي اتخذها مقر إدارته.
قال يرليان:
- وهل سبيل إلى لقاء أميركم ميسرة، والطرق معبدة، والأبواب مفتوحة؟

فأجاب العرب:

- إن أمرنا لا يغلقون الأبواب دونهم، ولا يمنعون أحداً من لقائهم، مهما كان شأنه! فهل تبغى أيها السيد الأندلسى الوصول إلى الأمير؟

- لا! ولكنه سؤال خطر بالبال، فأشكرك على كل حال.

وعرف يوليان أين يقيم موسى بن نصير، فأخذ للقاء عدته، وتنكر في ثياب لا تدل عليه، وفي ملامح لا تفضح عن شخصه، واتخذ طريقه على ظهر جواد أصيل، واتخذ معه بعض الرجال من بطانته، وسار يطوي مضارب الأرض في طريق لاحب طويل. طويل جداً، يمكنك أن تتبنيه على الخريطة، وأن تعرف قياسه بالنسبة إلى طول دلتا النيل...

ودخل يوليان على موسى بن نصير متنكتاً متخفياً، مبالغًا في الحذر، راجياً أن لا يعرف أحد من الخلق من هو ولا ما هي رسالته؟ وبدأ يوليان الحديث:

- لقد أقررت أيها العرب الأمن في ديار البربر وفي شمالي أفريقيا، كلها على كثرة ما كلفكم ذلك من ثمن، وقد نشرتم العدل في ربوع
المغرب حتى بت وأنا جاركم الضعيف في "سبتة" وما حواليها أشعر
بالعزة في جواركم ، وبالحماية في كنفكم ...

فقطعه موسى سائلا :
- ولكن هل أنت في "سبتة" مستقل بتدبير أمرك ، قائم وحيدك
على شئون أرضك؟

- لا يا شيخ العرب! فإنما أنا وال على هذه الأرض من قبل ملك
كبر يقيم في الجزيرة الكبيرة المقابلة للشاطئ الإفريقي ، اسمه لذرق.

- وما سيرة هذا الرجل الذي يملك هذا الملك العريض؟
- إنه يا شيخ العرب شر ملك في خير أرض ... إنها بلاد تجمع
أشتات المنافع ، وأنواع المرافق ، وطيب المزارع . إنها بجنة خلقها الله على
الأرض حتى يمكن أن يقال إن في الأرض جنات ... إن الأمطار تجري
من تحتها ، واللياء تتدفق من عيونها ، والثمار الطيبة تحتى رؤوس أشجارها
انتظاراً للقطاف ... والخصب يبدو في كل شبر من أرضها ، والنسم
يرق من أنفاسها في أية ساعة من نهار أو في أية لحظة من ليل . وقد اعتدل
فيها المناخ ، فلا هو بالبارد البارد ، ولا بالحار اللافح ، وإنما هو نفحات
تصبح المريض ، وتستن العليل . ولو أخذت يا أمير العرب أعد لك
محاسن هذه البلاد المقابلة للشط الإفريقي ، والساحل الغربي لنفتقد من
مادة الكلام ...
- لقد وصفت لي الأرض يا رجل ولم تصف لي أهلها، ولم تخبرني عن سكانها، ولم تحدثني عن أحوالها!
- ماذا أقول لك؟ إن في هذه البلاد ملوكاً متحاسمين، وأمراء متقاطعين متدارين، يتربيان بعضهم لبعض ... أما كبيرهم لذريق فليس من أبناء الملوك، ولا صحيح النسب في ذوى التيجان ... وإنما هو زعيم وقائد استغل موت ملك شريعي، وانتهز ضعفاً من أولاده الصغار، فقام ونصب نفسه ملكاً، وادعى ما ليس له، وثبت نفسه بالقوة، ولكنه لم يترك له صديقاً في البلاد ... فالمملوك والأمراء الذين حوله يعادونه لأنه دخيل عليهم، وأبناء الملك المت يكرهونه لأنه اغتصب حقهم، وانتزع سلطانهم. وليس في واحد من أصحاب الأامر في البلاد حمية لدفاع، ولا همة للقتال، لأن المطامع بينهم قد أسفدتهم، وفترة حماستهم، وأعمتهم أمورهم الخاصة، فكل حزب بما لديهم فرحون ...
- وما موقفك أنت من هذا كله؟
- أنا؟ أنا راض هنا بأمامي علي «سبتا» في ذلك الشاطئ الأفريقي الهادئ، فما لي ولملوك والأمراء المتفانين المتقاتلين هناك في الشاطئ الآخر؟! آه يا أمير العرب! لو كان عندي السلاح والرجال لاقتحمت هذه البلاد واحتجزتها لنفسى ... بجد السيف!
وسكت يوليان لحظة، لعله كان ينتظر كلمة من موسي بن نصير.
إذا لم يفتح فاه بكلمة، ثم استمر في الحديث قائلاً:

وأراد موسى بن نصير أن يطمئن إلى ما قاله يوليان، وأن يستوقف منه حتى لا يكون الرجل مذسوساً عليهم أو مدفعاً إلينا، فشجعه على أن يغزو الأندلس غزوة صغيرة بجماعته من عماله وبطانته في سبته.

وعاد يوليان إلى سبته، ولم يتردد لحزمة واحدة في شن غارة على ساحل الأندلس، فإنَّه لن يخسر بهذا شيئاً، ولكن يكون في مالك القوط لذريه، بل على الضد من ذلك سيكسب ثقة العرب به واطمئنانهم إليه، وسيؤكد بهذا العزل لموسى بن نصير أنه منحرف معه على ملوك القوط في الأنفس إليه.

وجمع يوليان جميعاً آخرين ودخل بهم البحر في مركبين أعدهما لهذا الغرض، وزمل ساحل الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، قتل وسبى، وغم، وأقام هناك أياماً، ثم رجع بمن معه سالمين لم ينقص منهم
عددٍ، ولم يفقد منهم أحدٍ...

وشتاعت الأخبار بين المسلمين عن هذه الغارة التي شنها يوليان، فأنسوها له، واطمأنتوا إليه، واستولفوا أن هذا الرجل المنحرف إليهم المنحاز إلى صفوفهم، لا بد أن يكون نفره من قومه في الشاطئ الأوربي أمر خطرٍ...

**

تحركت في نفس ابن نصير هتم كبار لفتح هذه البلاد التي وصفها له يوليان. لقد خاض هو منذ أن عين وعلياً على أفريقيا والمغرب أهوالاً كثيرة ومعارك عظيمة في البر، فلماذا لا يخوض إلى الأندلس غمرات البحر، وهى ليست إلا بلداً في مواجهة بلاد المغرب؟ لقد استدعى موسى كاتبه وأملى عليه كتاباً يبعثه إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، يخبره فيه بما أتباه به يوليان صاحب "سبتة" من أحوال البلاد وصفها واستعدادها للفتح تحت الظروف المحيطة بها، وتنازع أهواء ملوكها، وتكفكك عرا الوحدة بين أمرائها، ثم طلب منه في النهاية الإذن له بالخواص إلى هذه الجلالة الأرضية التي تنتظر فاتحاً. فإذا كانت مغلوبة على أي حال فلما لا يكون العرب الغاليين عليها المالكين لها؟ ووصل الكتاب إلى الوليد، وعاد البريد إلى أفريقيا يحمل إلى موسى ابن نصير رد الخليفة الذي يقول فيه: "لا تخصها يا موسى دفعة واحدة
بكتلة جيشك، ومجموع جندك، ولكن خضها بالسرايا الصغيرة، والبعض القليلة حتى تقف على حقيقة أمرها، وتختبر شأنها. وحذر يا موسى أن تركب المسلمين مراكب الخطر، أو أن تغرر بهم في بحر شديد الأهوال.

ولم ينكث موسى على هذه الملاحظة التي أبدى الخليفة منها خفاقة، فدعا كاتبه وأمل عليه كتابًا يوضح فيه أنه أبعد الناس عن أن يوطئ المسلمين مواطئ الهلاك، أو يلقى بهم إلى التهلكة، وأن البحر بين المغرب والأندلس ليس ببحر زخار متلاطم الأمواج، شديد اللفج، عنيف الغمرات، وإنما هو خليج ضيق من البحر يتبين للناشئ ما خلفه، حتى ليكاد الواقف على إحدى العدوتين يرى من علوا العداوة الأخرى.

وبلغ الكتاب الخليفة، فقرأه وأصر على رأيه من واجب احترامه بالسرايا الصغيرة قبل اقتحامه بجملة الجيش.

لم يجد موسى بن نصير بدأ من الإذعان لرأي الوليد بن عبد الملك حتى لا يركب المسلمين مراكب الغرر. فاختار من مواليه من البربر رجلا من أشدهم بأساً وأجرهم قلباً وأصابهم على القتال، اسمه «طريف» وبعثه في أربعمائة رجل، ومعهم مائة فرس بفرسانها. واختار هذه السرية أربعة مراكب، وركبوا جميعاً حتى نزل بهم طريف في ساحل البحر بالأندلس، بموضوع يعرف إلى اليوم بمجرة طريف، تذكيراً لذلك الحادث، وتخليداً لذكرى الرائد الأول لنزول المسلمين بالأندلس.
وأقام طريف في جزيرة طريف أيامًا حتى التأم شمل السرية كلها. واجتمعت كلها على صعيد واحد، فجعل من ذلك المكان نقطة لبداية الاستكشاف، وأخذ يغير برجاله على الجزيرة الخضراء بالأندلس، فأصاب مغامرة كثيرة، ووقع في يده سبي كثير، وكان في وجه السبايا من الناس ملحة لم تقع على مثلها الزيدي في ذلك، أما الأموال التي أصابوها والأمتى التي غنمها، فقد بلغت من الكثرة والنفاسة حدًا لم يعهدوه فيها كان لهم بأرض أفريقية والمغرب من غزوات.

طارق بن زياد

لم يجد ابن نصير بعد حملات طريف الاستكشافية على أرض الأندلس القريبة من الساحل - لم يجد بدأ من أن يقوم بالخطة الكبرى التي كان ينويها في قرارة نفسه لفتح هذا البلد العظيم. لقد حملته كثرة الغنائم، ووفرة السبايا، وتفكك القوط، وعدم صبرهم على القتال، على أن يبدأ الحملة الكبرى ليفتح الأندلس كلها بكتلة جيشه الرائع في الشاطئ الأفريقي انتظارًا لإشارة القائد. والآن ليس أمامه سبب لتأجيل الغزو، وتأخير الفتح.
فتش موسى بن نصير بين رجاله وأبطاله عن رجل يلقى عليه تبعة الفتح، ويسلمه قيادة الجيش الغازي، ويثبطه في المصابرة والمجاعة، ويضمان إليه حين يضع بين يديه مصير القوات الإسلامية الغازية في أرض غريبة عليها، ويعرف عنه الثبات حين تنخل قلوب الرجال، والمضى حين تحجم النفس، والإيمان بالله حين يزعزع الخوف أركان القلوب.

ولم يطل البحث بالقائد موسى بن نصير، إنه لا يعرف العصبية الجنسية بين عربي وبربري، ولا بين مشري ومغربي، لأن الجمع الآن أمامه مسلمون سوى الإسلام بينهم، ووحد بين صفوفهم، وآخري بين صغيرهم وكبيرهم، وغنيهم وفقيرهم، وأبيضهم وأسودهم، فلا فضل لعربي على غير عربي إلا بالتقوى.

إنه يعرف عن مولاه «طارق بن زياد» وهو من قبيلة نفزة من بلاد البربر - شجاعة القلب، وصدق العزيمة، ومضاء الإرادة. إنه يعرف تمام المعرفة حين كان عاملا له - قبل ذلك - على المغرب الأقصى، وحين ترك عنده رهائن البربر في أول عهده بالقدوم إلى المغرب. إنه كان نائبا عن ابن نصير في ولاية طنجة، وكان يولييم يجاوره في إمارة سبحة نائبا عن الملك لذريق ملك القوط، وليس بعيدا أنه كان دائم الاتصال بيوليام وأنه قد اقتنع بغزو الأندلس مما سمعه من يوليام، وأنه...
４４

بدورهحاول أن يقنع موسى بن نصير بفتحها كما أقنعه يوليان من قبل. خرج طارق بن زياد على رأس الجيش الذي أرسله موسى بن نصير لفتح الأندلس سنة 92 هجرية في سبعة آلاف من المسلمين، جلهم من البربر، وحملتهم أربعة سفن أعدت لذلك لنقلهم إلى الشاطئ الأوروبي، وألقت السفن مراسيا على الصخرة العتيقة القائمة هناك والمعروفة بجبيل طارق، وعلم طارق أن لذراع يجمع له من جمعه القوت ما لا طاقة له به، فكتب إلى موسى بن نصير ينصحه بخمسة آلاف آخر، وبذلك بلغت عدة المسلمين في معركة الفتح الأولى اثني عشر ألفاً من المجاهدين.
والحق أن يوليان الشريف الموتور من لذراع قام في هذه الحملة بدور خطير، لقد تولى هو بنفسه الإشراف على إنزال جند المسلمين في البحر، ومكن لهم عبور البوغاز في أمان من الغدرات والعمالات، وظل معهم في كل مرحلة يعتزوزها، يدلهم على عورات الأندلسيين، ويتجسم لهم الأخبار، لقد كان انحرافه إلى المسلمين على لذراع قوته من العوامل الهامة التي عجلت بالنصر. كأن الله حين أراد فتح الأندلس على يد العرب قدر أن يكون ذلك بعونتهم واحد من أهلها، السخطين على ملكها. وهكذا إذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب.

والحق أن عبور العرب البحر "الأبيض" المتوسط كان أمرًا سهلًا
الله كل التسهيل، ويسره كل اليسر، فلم تصادفهم ريح عاتية، ولا عاصفة مزجرة، بل كانت الريح طيبة رخاء، والسفن تجري باسم الله، حتى لقد كان طارق في خلال العبور ينام ملء عينيه، لا خوف يرهبه، ولا قلق يزعمه. ولقد رأى فين يراه النائم حلمًا أستبشر به بعد أن أفاق من نومه على ظهر المركب، وبشر به أصحابه والمقربين إليه...

لقد رأى طارق بن زياد في نومه على ظهر السفينة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد التف حوله صاحبه، والمهاجرون والأنصار، وهم متقلدو سيفهم، ودامع القسي على مناكبه. ورسل الله يناديه قائلاً: "يا طارق! تقدم لشأنك!«، ونظر إليه ولي أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه وهو يدخلها خلفهم.

وهنا هب طارق من نومه مستبشراً بما رآه، وبشر أصحابه برؤياه، وأيقن أن هذا الحلم هو الرؤيا الصادقة التي وعد الله بها الصالحين من عباده، وأيقن أن الله ناصره لا محالة في مهمته، ومؤيده في غزوته.

فقويت نفسه، واشتد قلبه، وتأكد أن وعد الله قريب...

* * *

لم يكن هذا الحلم الجميل البشرى الوحيدة التي رآها طارق في طريقه إلى الأندلس، فحين ألقوا مراسيمهم في أرض الجزيرة الخضراء أصاب من أهلها سبايا كثيرة، وكان في السي امرأة عجوز كانت تزعم بين...
قومها أن لها علمًا بالأخبار، وأن زوجها كان رجلا ينتبى ويتكهن، وأن زوجه الكاهن كان يحدثهم عن أمور كثيرًا ما وقعت على الصفة التي تنبأ بها. وعلى الهيئة التي كان يصفها. فما كذبت له نبوءة، ولا خابت منه كهانة. وكثيرًا ما أخبرها زوجها العرف عن أمير سيدخل بلدهم، ويلغب عليه، وأن هذا الأمير الغالب ضخم الهامة، وأن في كتبه اليسرى شامة عليها شعر. ثم اتجهت العجوز إلى طارق قائلة:
- إنك أيها العربي ضخم الهامة، وقد صدقنا النبوءة في بعض أجزائها، ولم يبق إلا الشامة على الكتف الأيسر، فإن كانت بك هذه العلامة فأتى بدون شك ذلك الأمير الذي تشير إليه النبوءة! ولم يتردد طارق في أن يتبنى أن صفات النبوءة كلها قد تجمعت فيه... فكشف ثوبه عن كتفه الأيسر، فإذا بالشامة فيه على نحو ما ذكرت العجوز. وبالطبع استبشر طارق هو ومن معه هذه المرة، كما استبشر بالرؤيا وهو على ظهر المركب في طريقه إلى الجزيرة الخضراء، وإلى الصخرة الشامخة التي تحمل إلى اليوم اسمه الكبير...
وكان لذراع حينا بلغه نزول طارق بالأندلس يجمع جموعه، ويؤلب جيوشه ويضم الصفوف المتفرقة من مملكة كانت ريح الخلاف قد دبت بينها. واستطاع أن يجمع جيشًا جراً عدته مائة ألف مقاتل، من أنحاء متفرقة، وأمارات مختلفة من بلاد القوط الأسبانية. وأقبل نحو المسلمين.
هذه الجموع من القوط وملوكهم وزعمائهم وفرسانهم. وكان أيسر الظن بهؤلاء الملك والأمراء والأفراد المحاسدين أن يلموا شعثهم، ويوجدوا كلماتهم أمام العدو الطارئ عليهم، الغازى لهم في عقر ديارهم ... ولكنهم كانوا ساخطين جميعا على زعيمهم لذراع والتي انتزع الملك من أصحابه الشرعين، ودس نفسه بينهم، ولم يكَف بذلك بل وضع نفسه موضوع الريادة فيهم، والزعامة لهم. واجتمع هؤلاء الأمراء فقال بعضهم لبعض: إن هذا الدعى الحبيث لذراع قد غلبه جميعا على سلطاننا، وانتزع الملك لنفسه، وإن لم يكن من أهله، وإنما كان من أتباعنا ومن خدام مليكتنا العظيم الراحل «غيبشة».

ولقد فسدت سيرته بيننا، وأعوج أمره فينا، ولسنا نعدم من أمره، وسيرته أن يزيد خبالا على خبال ... وهؤلاء العرب الطائرون علينا، الطارقون أبابنا هذه القرية العنيفة، لاحاجة لهم في استباثان بلدنا، ولا الاستقرار بأرضنا، فصبرهم العودة إلى بلادهم، والرجوع إلى ديارهم، وإنما همهم أن يملؤوا أيديهم من المغام، وجمعهم من الغنائم، وأيامهم من السبايا والنهب، ثم يرحلوا عنا، ويخرجوا من بلدنا، فلا ضير علينا إذا نحن ساعدنا العرب، حتى ترجح كيفهم، وينتصر جيشهم ولا يسأ بعد ذلك أن يهزموا لذراع، لأن هزيمتهم له هو انتصار لنا، والتخلص منه هو إخلاء للطريق أمامنا، حتى يتزاح من سبيلنا الرجل الذي نخشاه ونخشى...
بقاءه في البلاد ... فإذا ما انصرف العرب عن بلادنا بعد هزيمة لذريق، أستطعنا نحن بعد التخليص من هذا الخبيث أن نجلس على عرش بلادنا من يستحق الملك، ويستاهل السلطان، وكان ذلك سيراً علينا بعد أن يصلي العرب حسابهم مع لذريق.

وهنا عامل آخر قد انضم إلى عوامل آخر ساعدت في مجموعة على انتصار العرب، وهزيمة القوط في الأندلس شر هزيمة. فالمملوك الصغر والأمراء ساخطون على لذريق يتزعمون به الدوائر، وأبناء غيطشة الملك الذي نزع الملك منه ومن ذريته حاقدون على الرجل الذي اغتصب التاج منهم، ويوليان صاحب سبطة ساخط على لذريق بسبب فعلته الشعواء مع ابنته الجمهيلة الفاتنة «فلورندة»، فهو عين للعرب على لذريق ورجاله، وهو يغري موسى وطارقا بالفتح، وهو يمضى في سفر شاق طويل إلى إفريقيا لبحض ابن نصير على فتح الأندلس، وهو ينحاز إلى العرب ويعلينهم في المراكب الاستكشافية الأولى إلى الشاطئ الأوربي ليؤمنهم فيجات الطريق ...

ولكن من فوق ذلك كله لن نغفل من حسابنا إيمان المسلمين وشجاعتهم في القتال، ونقتهم بنصر الله الذي وعده المؤمنين وكان حقا عليه. نعم لن نغفل هذه الروح المؤمنة القوية التي أتاحها لبضعة عشر نفرًا من المسلمين أن يغلبوا مائة ألف من الأسبانيين المكتملي السلاح والعدة.
وهل أعجب من أن تغزوا قلعة قليلة كثيرة كثيرة في عقر دارها،
وعلى رقعة أرضها، وفي مراكز إمدادها وتموينها، وهي بعيدة آلاف
الأميال عن أوطانها، والبحر يفصل بينها وبينها، ثم تغلبها ذلك الغلب
الذي لم يشهده التاريخ في مواكبه إلا حين فتح العرب قبل ذلك بلاد
كسرى، واستولوا على ملك قيصر في خلافة الخليفة عمر بن الخطاب؟
والحق أن لذرير ملك القوطي وزعيم الأندلس كان على جانب كبير
من الغفلة حين أعطى قيادة جيوشه المقاتلة للنافتين عليه من بيت الملك
ومن أبناء «غيطشة» . فقد ولى اثنتين من أبناء غيطشة قيادة الجيش،
ولم يعلم أنهما كانا على رأس من أدار عليه الهزيمة، فهما لا يقلان عداوة
له وسخطا عليه من يوليان الموتور . لقد كانا يمنيان نفسيهما في حالة
هزيمة لذرير برجوع مملكة والدهما إليهما .
واجتمع أبناء غيطشة ودبروا خطة للغدر بذرير وهو في لقاء العرب
كما غدر بهم وتأييدهم من قبل واغتصب الملك منهم . وأرسلوا إلى طارق
ابن زيد رسولا من عندهم، يعلمونه أن لذرير كان تابعا لأبيهم، وخادماً
من جملة بطانته، ولكنه خان الأمانة، فغبنهم على سلطان
أبيهم وعلى حقهم المشروع فيه، وبهذا أصبحوا أصحاب ثأر عنده، وحق
لديه . وهم لن يتراكوا ثأرهم، ولن يتنازلوا عن حقهم، وهم يطلبون منه الأمان
على أن يميلوا إليه عند اللقاء بمن يتبعهم من أنصارهم، وأنهم لا يطيعون
من العرب في شيء أكثر من أن يرد طارق إليهم ضياع ولهيم بالأندلس التي اغتصبها لذرائع لنفسه، ومضى إليها إلى حوزته. وكانت ثلاثة آلاف ضيعة من أخصب بقاع الأندلس، وأزكاها نباتا، وأطيبها ثمارا، وأنفسها قيمة. ... وهي التي سميت فيما بعد «صفيا الملوك».

وضمت أيام شعب رمضان من عام 92 هـ منذ حظ العرب رحالهم أول الأمر بصحرة جبل طارق، ثم مضى بعد ذلك شهر شعبان كله، وجاءت أيام رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقن، واجتمع المسلمون مع الصبر على القتال الصبر على الجوع والظما، وحبس النفس عن الشهوات والملذات، إلا لذة الجهاد في سبيل الله. ... وأصبح الجيشان المتقاتلان يتزلان في معسكرين على مدى غير متعدد الأطراف. وأراد لذرائع أن يستطلع أخبار المعسكر العربي ويعرف أحوالهم، ويعين هيناتهم، ويرمز عددهم، فاختار رجلا من أخلص رجاله، يثق به، ويطمئن إليه، ويعرف نجدهه وبأسه، ويتأكد من براعته في فن المخابرات، وجمع المعلومات. ثم وجه إليه الأوامر قائلا: 

ليس لنا من رجل يعرف أحوال معسكر هؤلاء القوم المهاجمين إلا أنه، وهؤلاء عاصبة قد هبطوا على بلادنا من حيث لا ندرى وليستعيش، فاجمع لنا أخبارهم، وعاين لنا هيناتهم، وصف لنا مراكبهم، وذكر لنا عدلتهم وسلاحهم، فهل هي مثل أسلحتنا، أم عندهم من العدد ما لا
علم لنا به، ولا طاقة لنا بملاقاته بِمِثْلِه.

وذهب رسول الأسبانيين لِغايةه حتى طلع على عسكر المسلمين، فلما استشفوه وَثَبَّوا إليه، فأطلق لفرسه العنان، فركضا خلفه ليذروه، ولكنه فاتهم بسبق جواده، وعاد بعد ركض طويل، وقد انقطعت أنفاسه أو كادت، وقادت الكلمات تتعطر بين شفتيه من طول ما ناله من الإعياء. وصر على لذريق حتى استرد أنفاسه، وسكت نفسه المضطربة، ثم قال له:

- كيف رأيت القوم أيها الفارس الشجاع؟

وجمع الفارس أطراف نفسه المتناثرة ليقل:

- يا مولاي! إن الأمر جد لا هزل فيه! لقد أتاك الصور التي كشف لك عنها التابوت... فخذ على نفسك، والزم الحذر على ملكك وجيشه، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك... لقد أحرقوا مراكبهم التي عبروا بها البحر. إلينا، حتى تأمل أنفسهم من التعلق بها، أو التزويج إليها، وحتى يوطنوا أنفسهم على البقاء هنا... واصلوا في السهل الفسيح المنبسط موطنين أنفسهم على الثبات، إذ ليس لهم في أرضنا مكان لمهر، ولا مجال لفرار... وكان هذا التقرير الذي ألقاه على سمع الملك لذريق عين من أخلص عيونه كافياً لأن يثير في قلبه الرعب، ويتثير اللحمة، ويهز جوانب نفسه هزاً عنفًا...
طلاسم بيت الحكمة

ولكن ما قصة هذه الصور التي كشف عنها التابوت للملك لذرّيق كما أشار الرسول؟ وأرى تابوت هذا الذي احتوى تلك الصور؟ لعل قصة هذا التابوت، وهذه الصور التي انكشف عنها هي إحدى تلك الخرافات والأساطير التي تتسجج حول الحوادث الجسم لptoms عليها جوا من الغريبة، ولكنها حكاية طريفة لا بد من إيرادها هنا لنكمل بها الصورة التي نرسمها للفائد موسى بن نصير على العموم، ولفتح الأندلس على الخصوص.

كان يضرب الأندلس ملك يحكم ولاية من ولاياته تسمى قادس، وكانت الأندلس في زمن قديم كثيرة الملوك، لكل بلد أو بلدين بها ملك. وكان أهم شيء يشغل هؤلاء الملوك هو تحسين هذه البلاد من العرب والبربر الذين كانوا يخافونهم على جزيرتهم العامة، وكان البربر أشد الناس إزعاجا لهم، لأنه لا يفصلهم عنهم إلا البحر "الأبيض" المتوسط في أضيق مجازاته. فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسا يقف في وجههم، ويجول دون عبورهم، وعملوا لذلك أرصادا ...

وكان لملك قادس ابنة بارعة الحسن فاتنة الجمال، حلوة الدلال ...

52
فتسامع بها الملك وترامت إليه أنباء زملائها، فتفاحتا على خطبتها، وتسابقو إلى طلب يدها من أبيها. وخشيت أبوها إن زوجها من واحد أن يسقط البقين. وكان حريصاً على مودة جميع الملك والأمراء المجاورين له، فتحير في أمره، ودعا ابنته وقال لها:

- يا بنية! إنني أصبحت في حيرة من أمرك، وأخشى إذا قبنت أحد خطابك من الملك أن أسخط بقيته ممن أحضر على ودهم، فما العمل؟ فأجابته في اعتداد وثقة:

- اجعل الأمر إلى تخلص مما تخشاه من تورط.

- وما تقترحين إذن لحل هذه العقدة؟

- أقترح أن تشرط على من يخطبت إليك أن يكون رجلاً يجمع بين الملك والحكمة!

- نعم ما اخترته لنفسك يا ابنتي!

وكتب أبوها في أجابته للملك الخطاب أن ابنته اختارت من الأزواج الملك الحكيم، فلما وقفا على الجواب سكت منهم من لم ير في نفسه الحكمة. وبقى اثنان أصر كل منهما على أن الملك الحكيم. ولكن المشكلة بقيت بغير حل، لأنه إذا قبل واحداً منهما أسخط صاحبه، فترك لابنته حل الإشكال بعقلها الرجيح. واقترحت الفتاة على كل منهما أمراً يأتي به، فأبهما سبق إلى الفرغ منه قبل صاحبه كان هو
الزوج المنشوّد. وقالت الفتاة: إننا ساكنون بهذه الجزيرة ونحتاجون إلى أرحاء تدور بها، وإلى مقترحة على أحدها إدارتها بالماء العذب الخارجي إليها من ذلك البر، ومنترحة على الآخر أن يصنع لي طلمسا نحسن به الجزيرة من غارات من يفده عليها من الشاطئ الأفريقي! وسر أبوه بهذا الحلم الوقائع السعيد، واستظفر وكتب به إلى الملكين الخاطبين، فأجاباه إلى ذلك واختار كل منهما واحدا من الاقتراحين وشرع يعمل ما أُسند إليه.

وكان صاحب الرحي التي تدار بالماء العذب من البر الكبير أسبق إلى إنجاز ما وعد حرصا منه على الظفر بالأميرة الفاتنة، أما صاحب الطلسم فلم يقل عن صاحبه رغبة في الإنجاز، ولا طلب للسرعة، ولا تعجيلا للنفاد، ولكنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله، غير أنه عمل أمره وأحكمه، وشهد بناء مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر، وعمق الأساس تحت الأرض بقدر ما يظهر منه على سطحها حتى يكون أثبت.

فلمما انتهى البناء المربع إلى العلو الذي رسمه له، صب من النحاس الأحمر والحديد المصى الخالدين بأحكم الخيط تمثال رجل من البربر، له سبعة سرعة، وفي رأسه ذو أذية من شعر جدد قائمة في رأسه لشدة جودتها، وقد التحف بكساء جمع فضل طرفه على ذراعه الأيسر في أبدع تصوير
وأطلس تقدير، أما يده اليمنى فقد مدتها بفتح قبض على مشياء إلى البحر، كأنه يقول بلسان الحال: الطريق مقفل! فلاعبور! وقد ارتفع التمثال في الهواء إلى ما ينير على سبعين ذراعًا...

ولم يكد يتهبأ لصاحب التمثال موعد رصد ملائم حتى أخذ الملك يتسابقان إلى الفراق، و يتنافسان في الإنجاز، لأنه بالسبق يستحق زواج الفتاة الحسناء!

وكان الخاطب صاحب الرحى التي تدار بالماء فيه دهاء واحتيالى، فقد فرغ أولا من عمله، ولكنه أخنى أمره عن صاحب الطلمسم خشية أن يترك عمله حين يعلم أن منافسه قد سبقه. فلا يتم إنجاز الطلمسم، وهو حريص على إنجازه لتحظى الأميرة الحسناء بالرحى الطلمسم جميعا! فلما علم باليوم الذي يفرغ صاحب الطلمسم في نهايته من إنجازه، أدار هو الرحى التي صنعها بالماء العذب، حتى اشتهر أمرها ووصل إلى صاحب الطلمسم وهو في أعلى قمة التمثال يصقل وجهه، فلما استيقن أنه مسبوق وأن فتاة أحلامه قد ضاعت من يدته ضعفت نفسه، واسترخت مقاصله، وقد توزنه، فسقط من أعلى التمثال الشاهق جسداً لا حراك به!

وبهذا حصل الملك صاحب الرحى على الأميرة والرحى والطلمسم...

وافق ملوك الأندلس بعد ذلك على أن يدعا الطلمسام التي صنعت لوقاية
بلادهم من غارات المغيرين في تابوت من الرخام وضعوه في بيت بمدينة طليطلة، وكان هذا البيت مغلقاً متحاباً الفتح، وعلى أقفال عدة بعدد ملوكهم، من عهد إقامة الطلسم إلى عهد الملك لذرير آخر ملوكهم.
وكان يتولى حراسة هذا البيت قوم من ثقات القوط لكي يمنعوا الملوك من فتحه، وجرى على ذلك أمرهم، فكلما جلس على عرش الأندلس منهم ملك أتاه أولئك الحراس الثقات الموكلون بالبيت، فأخذوا منه قفلاً، ووضعوه على الباب مفلاً، من غير أن يزيلوا قفلاً من تقدمه.
وبلغت الأقفال على باب التابوت ستة وعشرين قفلاً، لكل ملك قفل، ولم يحاول واحد من هؤلاء الستة والعشرين أن يفتح الأقفال ليرى ما وراءها، فقد كانوا يتشاءمون من ذلك أشد الثنيم، ويخذرون أن يقع عليهم منه شر مستطير.
ولكن الملك لذرير جاء بعد اغتصابه الملك من غيضة، وحدثته نفسه أن يفتح هذه الأقفال ليكشف عما وراءها. فجمع وزراءه وخلاصة دولة ممن يثق بهم، وأهل الريا في المملكة، وقال لهم: «إنني جمعتكم اليوم لأخذ رأيكم في هذا البيت الذي يضع كل ملك جديد فيه قفلاً من غير أن يفتح أقفال من تقدمه من الملوك. وقد نازعتني نفسي أن أفتح هذا البيت المغلق بهذه الأقفال لأنظر ما فيه، وأرى ما يحويه، فإني لم يعمل عبثاً ..».
فقال له واحد من أسدهم رأياً، وأحصفهم نظرًا: «أيها الملك صدقت! فإنه لم يصنع عبناً، ولم يقل سدى، وإنما لا بد هناك من حكمة في التوصية بأقفاله، والحرص على سده وبقائه مغلقاً. وقد ظل ستة وعشرون ممن سلفكم من ملوك الأندلس يجريون على هذه السنة حين ألقيت إليهم مقاليد الملك. فلماذا تحاول أن تغير سنتهم، أو تختلف طريقتهم؟ والرأى والمصلحة أيها الملك أن تلقى أنت أيضاً عليه قفلاً، أسوة بمن تقدمك من الملوك. وقد كان أسلافك في عرش هذه البلاد لم يحملوا هذا، فلا تفعله أنت، وسر سيرهم. فنحن نخشى أن يصيبنا شر من فتحه.»

فقال له الملك: «أنا لا أستطيع أن أرى هذا السر مغلقاً محكماً عليه بالأقفال، من غير أن تناععني نفسى إلى كشفه، وإذا كان أسلافك لم يفعلوا ذلك، فلست ملزمًا أن أسير على طريقهم. ولا بد لي من فتحه.» ورأى الأمراء والوزراء وبقية ملوك الولايات الأندلسية إصرار كبيرهم لذراع على فتح الأقفال، فحاولوا أن يصدوه عن عزمه، وأن ينوه عن المضي في طريق يخافون منه افتتاح باب الشر عليهم وقد كان موصداً. فقال له أحدهم متكلمًا بسانهم، ونائباً عنهم: «أيها الملك! إن كنت تظن أن وراء هذه الأقفال مالاً مخبوءاً، أو كنزًا مدفعًا، فقدره لنا كما يراه رأيك، وكما يتصوره حسابك، ونحن نجمع لك...»
من أموالنا نظيره ، وتقديمها لك ، بدلا من فتحه ، حتى لا تحدث لنا
علينا بذلك حادثة لا نعرف عاقبتها ! 
وأصر الملك لذرائع على فتح البيت الذي تحامي الملوك قبله فتحه ،
وكان فيه عاناد في الرأى ، وصلاة في الفكر ، فأمر بفتح الأقفال ،
واجتمع الأمراء والوزراء والأشراف في يوم معين ليشهدوا ذلك الحادث
الذي لم يكونوا يتوقعون حدوثه ، ولعل خوفهم من سوء العاقبة قد غطى
عليه فضولهم لمعرفة ما وراء هذه الأقفال . وكان على كل قفل مفتحة
ملعقة ، فلما فتح الباب رأوا تابوتا وعلى قفل ومفتاحه ، فتناوله لذرائع
وفتحه ، فلم يجد فيه غير رق كبير من الورق أو ما يشبه الورق ، وعلى
صور فرقة من قوم على هيئة العرب ، على رؤوسهم العمام ، وهم على
صهوات خيل عربية أصيلة ، وقد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسي ،
ورفعوا الراهب على الرماح . . ..
وأدهشتهم هذه الصورة ، فأخذوا يقلبون ما حواليها لعلهم يعترفون
على ما يزيح الستار عن سراها ، فوجدوا عبارة مكتوبة بلغتهم ، وتقدم
رجل منهم ليقرأ العبارة فإذا فيها : « إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت ،
وفتح هذا التابوت ، وظهر ما فيه من الصور ، فإن هذه الأمة المصورة
رجالا على هذه اللوحة سيدخل رجلا إجزيارة الأندلس ، فيغلبون عليها ،
ويذهب ملك من فيها من أليذههم . . .. »
وندم الملك لذريق ندمًا شديداً على ما فعل، وأيقن أن أمرًا عظيماً سيحل بدولته، وتبكيه لو لم يكسر الأقوال التي أنذره ما خلفها بشر عظم. ولم يمض طويل على فتح بيت الحكمة، وكشف التابوت حتى كان العرب في طريقهم إلى الأندلس، وحتى كان الرسول الذي بعثه لذريق ليتجسس على معسكر العرب، فرجع إليه وهو يقول كما سبق: "يامولاي لقد أتتك الصور التي كشف لك عنها التابوت!"

الملك الغريق

التقي الجيشان غير المتعادلين في العدد والعدة لقاء هائل في أخريات شهر رمضان، وكان لذريق في مائة ألف من فرسانه، ومعهم العجلات التي تحمل الأموال والمتاع، وهو في عجلته الحربية، قد نصب له فيها سرير من الذهب، بين دابتين من أفره الجياد، وحوله حرصه القريب منه، قد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، وطوقوه حتى يكون في دائرة من الأمان، وعلى رأسه مظلة مكللة باللدر، ومرصعة بالعقات والرجل، وهو في أبهى حلة، وأتم زينة.

ورسم لذريق خطة يتحرك بها أولًا ليبدا الهجوم على معسكر المسلمين
وكانت عيون طارق تواليه دائماً بأنباء الأسبانيين وتحركهم، فخرج إليهم طارق بجميع رجاله وجلطة أصحابه، وهم مشاة يضربون أرض الأندلس الجديدة على خطواتهم بواقع عنيفة تحمل في أصدقاءها معنى الإيمان والإقلاع. وبلغت طرقاً صفة جيش الأندلسيين، وكثرة رجاله، وكثرة فرسانه، وكثرة ما فيه من العدة والسلاح، فأراد أن يحمس العرب على القتال، ويشجعهم على الجهاد مهما لقوا في سبيل غرضهم، فجمعهم في ذلك الموقف الهيب وخطب فيهم خطبته المشهورة: "أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصرح. وأعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأنيام، في آدية اللثام، وقد استقبلتم عدوكم بحيله وأسلحته، وأقواله مفورة وأنتم لا وزر (١) لكم إلا سيفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجوا لكم أمرًا، ذهب ريحكم، وتعوشت القلب من رعبا منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم دينيتكم الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لم يكن إلا مستحباً لأنفسكم بالمغفرة، وإلى لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حملتمكم على خطة أرخص متنا من الفنوس. ولم أبدأ بنفسى، وأعلموا أنكم

(١) لا وزر: أي لا ملجأ ولا سند.
إن صبرتم على الأشب قليلاً، استمعتم بالأرفة الالد طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى، فما حظكم فيه بأوقى من حظى، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الخسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والخلال المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعام، واستيحاكم بمجادلة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه، بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خاليةً لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين.
وأعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوكم إليه، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق، فقاتلهم، إن شاء الله تعالى فاحملوا معى! فإن هلكتُ بعده فقد كفيكم أمرهُ، ولم يجوزكم بطل عاقل تسدون أموركم إليه. وإن هلكتْ قبل وصول إليها فخلفوني في عزمي هذه، وأحملوا بأنفسكم عليه، واتفوا الله من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخجلون.
»
وأما أم طارق خطبته حتى عاهده العرب على صدق الجهاد. وبذل النفس، وإرخاخ الأرواح، وقالوا له: "لقد قطعنا الأمال مما يخلف
ما عزمت عليه! فهلم إليه فنحن معك، وبين يديك

اتصلت المعركة الأولى للفتح من أخريات رمضان إلى اليوم الخامس من شهر شوال، وقد مر العيد، عيد الفطر على المسلمين وهم في صميم الموقعة، وفي شدة القتال. وكان اللقاء عنيناً، وانهزمت ميمنة الجيش الأسباني كما انهزمت ميسركه، وكان عليهما ابنا غيطشة، وفعل تراخيهما في القتال يرجع إلى الثائر الذي لهما عند لدريق بانتزاع ملك أبيهما.

وإنجلت المعركة الرهيبة عن كثير من قتلى أهل الأندلس، حتى كانت الجثث بعضها فوق بعض مكدسة في أطراف الميادين، وظلت العظام بعد ذلك زماناً طويلاً مبعثرة في تلك الأرض، لم يستطع أحد إزالتها أو نقلها من مكانها.

وحاز المسلمون من معسكر القوط ما يجلى قدره، وما لا يستطع وصفه، وكأنما فتحته لهم كنز هذه البلاد ومدخراتها دفعة واحدة. أو كأنما انصبت عليهم المغامرة كما ينهر المطر من السماء. وحصلت في أيديهم أثقال وأحمال وأكادوس من الذهب والفضة والدرر والجواهر والحاويات، وما كان يفتن ملوك القوط في جمعه والباحة به.

وكان المسلمون يميزون أصحاب الجثث المطروحة على أرض المعركة، ويعرفون طبقاتهم مما يحملونه من الخوائتم التي كانت عادة أهل البلاد أن يتختموا بها، كل على قدر مكانته ومكانته.
يتختمون بالذهب في أصابعهم، والمتوسطون منهم يلبسون خواتم الفضة.
أما عبيدهم وخدمهم فكانوا خواطنهم من معدن النحاس...
و هنا يحملنا الشوق إلى أن نعرف مصير الملك لذريق. لقد ثبت في قلب الجيش بعد أن انهزمت ميمنته ويسرته، وأيقن الملك أنه لا مفر من شرب الكأس حتى نهايتها، فقاوم من بقي معه من الحشد مقاومة المستيس.
ولكنها مقاومة لم تكن لتطول، فقد هزمت البقية وهزم معها لذريق، واستمرت المهزيمة، والمسلمون يحملون على القوط حملة صادقة، فقد استيقظوا أنه إما الموت أو الصبر حتى يفعل الله ما يريد. وأذرع العرب القتل في الأسبانيين، حتى كان كل شيء يؤذن بأن النصر للفاتحين عمدا قريب...
وبينما المسلمون في قتالهم إذا بالملك لذريق، وقد خُفى أثره من المعركة،
كأن الأرض ابتلعته، فلم يعلموا من أمره شيئًا. ولكنهم في نهاية الموقعة وجدوا فرسه الأشتهب الذي كان مسرحاً بالذهب المكمل بالياقوت والزبرجد، وهو وحيد ليس على صهوة صاحبه. وقد ساخ الفرس في طين قريب من نهر، وعلى مقربة من الفرس فرد من حزاء مذهب مفضض هو أشبه بأحذية الملوك. نعم: إن الفرس هي فرس لذريق بعينها وسرجها الذي لم يكن في جيش القوط مثله، وإن هذا الخف هو خف الملك لذريق، وقد بقي منه فرد، ولم يوقف للآخر على أثر...
أما لذريقي نفسه فلم يوقف له على أثر أيضاً . . . فقال قوم إنه نزل إلى النهر وألقى بنفسه فيه فراراً من عار الخزيمة ، وخوفاً من أن يقع في أيدي العرب .

ولما رأى أهل الأندلس هذا المصير الذي نزل ببيوشهم وملوكهم وعلى رأسهم لذريقي ، تهاربوا من السهل ، وارتفعوا إلى الأراضي المرتفعة حيث القلاع وال حصون ، ثم اعتاصموا بقين الجبال حتى لا يدركهم الفاتحين ، وترامت أنباء هذا الفتح الجليل إلى بر العدوة بالشاطيء الأفريقي ، وسرت بين العرب في أقصى بلاد المغرب أخبار الغنائم التي لا تحصى بما لا يخطر على قلب ، فاجتازوا البحر من ثغور المغرب ، وأقبلوا على الأندلس من كل وجه ، حتى ازدهم بحر الزقاق بسفنهم وقواربهم ، ومن لم يجد منهم زورقاً احتال على أن يعبر مضيق جبل طارق على ألواح من الخشب ، واندفعوا جميعاً كالسيل المهمر نحو هذه الأرض المملوئة ببغاكم لم تكون لهم في حساب . . .

واندفع طارق بن زيد بجندته حتى أتى مدينة « شدونة » ، ولكن أهلها امتنعوا عليه ، واستبسلوا للقتال ، فضيق الخصار عليهم ، حتى أصابهم الضرب ، وأنهكم الضيق فاضطرت إلى الاستسلم بعد أن فتحها علماً وغنم منها شيئاً كبيراً . وظل اطارق يميل من بلد إلى بلد ، ويولع في شبه الجزيرة ، محاولًا أن يهزم فلول المقاتلين .
ورأى القوط أن طارقا لم يكتف بما أصابه من مغامرة كثيرة، وأنه لا يفكر في الرجوع إلى بلده، وأن توغله في بلادهم يدل على أنه ينوي لها أمرًا، ويدبر لها شيئا، فقدف الله الربع في قلوبهم، وسقط في أيديهم، وأيقنوا أن هذا الطارق لا يكتفي بعد الغنيمة بالإياب... فطارقوا سراً إلى المعاقل يعتصمون بها، وترجعوا إلى شال الجزيرة فراراً من الهول في جنوبها، وارتد ذو القوة منهم إلى مدينة طليطلة، وهي دار مملكتهم، وقصبة ديابهم.

ولم يعدم طارق أسباب الاحتيال على إلقاء الربع في قلوب الأسپانيين بعد ما أتيح له من النصر والفتح الذي تفتحته له أبواب السيا. فجمع أسرى القوط، وجمع أصحابه حوله وحولهم، وأمرهم أن يمزقوا أوصال القتال ويطععوا لحومها، ويبضعوها في قدور كبيرة، وجنات عظيمة، لييوما الأسرى أنهم يطلبون هذه اللحم الآدمية لأكلها! وسرت بين أسرى القوط هذه الأنباء، وانتقلت منهم إلى من وراءهم خلف الخطوط، فامتلأت قلوب القوم ذرعاً ورعباً، وأخذوا يفغلون فراراً من قوم لا يعافون اللحم الآدمى، بل يؤثرون عليه أطيب أنواع اللحم...! وأخذ طارق بن زياد يرسل الجيوش من رجاله إلى أنحاء الأندلس المتفرقة لفتحها، فبعث جيشاً إلى قرطبة، وآخر إلى مالقة، وثالثاً إلى غزّاطة، وسار هو يريد مدينة طليطلة حاضرة المملكة.
وكان القائد الذي أرسل لفتح قرطبة «مغيث» الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وكان من موالي الروم الذين دخلوا في الإسلام فشرح الله صدورهم له. وكانت مدينة قرطبة في ذلك العهد من أعظم مدن الأندلس وأكثرها ازدهارًا، وأجملها عمارة.

وأقام مغيث على محاصرة أمير قرطبة ثلاثة أشهر، وهي تحتمل كل هذا الحصار الطويل، حتى ضاق مغيث من ذلك وطال عليه، وهو غير مستطيع الدخول إلى الحصن. فتقدم إلى رجل أسود من عبده اسمه «رباح» وكان معروفاً بالبأس والنجدة، وأمره بأن يكمن في أيكة ملتفة على مقربة من الحصن، لعله أن يظهر بواحد من القوط يقف منه على خبر القوم المحاصرين، ويعرف منه طريق الوصول إليهم.

ومضى «رباح» إلى مهمته في التجسس، ولكنها — على الرغم من نجدهته وبأسه — كان ضعيف العقل سيء التدبير، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعد في بعض أشجار الأيةكة ليأكل من ثمارها الذي سال لعاب العبد له! فبصر به أهل الحصن من خلال مخابئهم في داخله، فشددوا عليه وأخذوه، وساقوه إلى كبرهم. ولكن سواد لونه قد أتى الرعب في قلوبهم، فأنكروا خلقه لأنهم لم يكونوا قبل ذلك عائينوا إنساناً أسود!

واجتمع القوم على «رباح» في سواد جسمه، وكثر لغتهم، واشتهد تعبهم من خلقه. وظنا أنه طلي جسمه بطلاء أسود! أو بصبغ

26
من تلك الأصباغ التي تسود الجلد. والعبد بين أيديهم لا يستطيع الإفلات من زمامهم بعد أن أوقعه في الشريك سوء رأيه.

وأراد القوط أن يستؤثقوا من لون «رباح»، فجدوه من ثيابه كيوم ولدته أمه، وأدنوه من القناة التي كان الماء يأتيهم منها، وأخذوا في صب الماء عليه، وغسله وتدليكه بالحبال والليف، حتى أدموا جسمه، وأصابه منهم إعنتاً كبير. واشتدت استغاثته وعلت صراخه! وأشار إليهم -بالإشارة- أن الذي به من السواد هو خلق الله، لا صبغة إنسان.

وكان فهمهم لإشارته في النهاية بعد أن نال منه الأذى كثيرًا. وبقي رباح بينهم أسيراً سبعة أيام، وهم في خوف منه، وفي عدم اطمئنان إليه، ولم يتركوا التجمع عليه لحظة واحدة، والنظر إليه دائماً، كأنما وقعوا على شيء غريب عجيب!

وأخيراً يسر الله له الخلاص ليلاً، فاستطاع أن يهرب في ظلام ليل حالك مثله! وأتى الأمير «مغنياً»، وأخبره بأمرهم، ودله على شئونهم وعلى موقع الماء الذي منه يستقرون، ومن أين يأتيهم.

وقد العرب منافدو الماء إلى الحصن، فانقطع الماء عن المحصورين، وأيقنوا بالهلاك. وفر عليهم أميرهم وحده حين لم يطق صبراً على هذا البلاء، وهرب إلى طبلطلة، ولكن مغنياً كان وراءه كالليل الذي يدرك الإنسان مهماً ظن أن المنتتهاى عنه واسع... فلحقه قرب قرية صغيرة تسمى
ابن نصير في الأندلس

انتهى رمضان من عام 92 ه بالفتح العظيم على يد طارق بن زياد ، وانتهى عبد الفطر بعده بالانتصارات التي أخذ يتلو بعضها بعضاً ، وبالفتحات الكثيرة التي هيأها الله للعرب ، ومر من دورة الزمان عام كامل ، وجاء شهر رمضان من سنة 93 ه بعد أن ملأت أخبار الفتح العظيم سمع الزمان ، وبلغت إلى أذن موسى بن نصير وهو في مقامه بشمال أفريقيا ، فعزم على المسير إلى الأندلس في حملة أخرى يتولى هو قيادتها بنفسه ،
لا يعود القعود دائماً في أرض، وإنما لله هم لا منتهي لكبارها. وقد مهد له "طريق" الطريق إلى الأندلس، فلماذا لا يتهاو هو للمسير بنفسه؟.

ودعا موسى بن نصير إلى الحملة، فأقبل عليه الجميع من العرب والبربر بأعلامها متملئة إلى الجهاد، متطلعة في شوق وحراية إلى القتال، واستخلف على أفريقيا أسن أولاده، وهو عبد الله بن موسى بن نصير، وعبر برجاته البحر كما عبره طرق منذ عام، وكان أصحاب "يوليان" يدلونهم على الطريق، ويمهدون لهم جواز البحر في أمان.

ونزل موسى بر الأندلس، فتحاشى أن يسلك الطريق الذي سلكه طارق، خشية أن يقال إنه كان يقفو أثره، ويبعى خطاه، بل تحاشى أن يقف بصخرة جبل طارق، ووقف بصخرة أخرى سميت صخرة موسى ابن نصير...

واعتنا موسى بأتباع يوليان وأصحابه على أن يتنكبا دائماً الطرق التي سارت فيها خطوات الحملة الأولى، حتى يمشى في الفتح دائماً على طريق جديد غير مطروق... وقال له أصحاب يوليان: "نحن ندلك على طريق أغنى من طريق طارق، وندلك على مدن أعظم قدراً، وأكبر خطراً، وأوضع مغداً من المدن التي انتهى إليها، وهي لما تفتح بعد، وله الله يفتحها عليك!"
ومضى موسى بن نصير في جانب ساحل مدينة «شدونة» ففتحها عنوة، وألقى أهلها بأيديهم إليه، ثم سار إلى مدينة «قرومونة»، ولم يكن بالأندلس ككلها أحسن منها، ولا أمنع على من يرومها، ولا أعز على من يريدها بقتال أو حصار. فلجأ إلى الحيلة في فتحها، وذلك أنه بعث إليها جماعة من أصحاب يوليان، على هيئة رئة، بصورة منزومة، كأنهم فلول من جيش الأندلس المهزوم يلتمسون ملجأً، ويطلبون مهرباً، ففتحوا لهم أبواب المدينة، وإذا بجيش موسى من ورائهم يقتتح الأبواب عليهم، ويطرقوه جحيله. فلم يجدوا بداً من الاستسلم... وهكذا وقعت القلعة الحصينة، والمدينة المنيعة، في قبضة العرب الفاطميين... وظل ابن نصير ينتقل برجاله من فتح إلى فتح تنقل الأقدار في السهاء، وهو لا يعلم عن طارق شيئاً، فكل وجهة هو موليها... ومضى إلى مدينة أشبليه - وكانت عاصمة البلاد قبل أن يملكها القوط ويتحلوا إلى طليطلة - فحاصرها، وسلمت إليه بعد أن امتنعت عليه أشهرًا، ومضى منها إلى مدينة ماردة، وكانت قصبة للبلاد في سالف الدهر، وكان بها آثار وقصور ومعالم جميلة القدر، فائقة الوصف، فحاصرها. ولكن أهل ماردة كانوا ذوي عزة ومنعة وبأس شديد، ولم يكونوا ممن يستسلمون في سهولة، أو يضعونسلاح في يسر وتسامى، بل كانوا أشداء على المسلمين، فنالوا منهم نيلاً عظيماً، وقتلوا منهم كثيراً.
وكانت تلك أول معركة شالت فيها كفة العرب ...

واستعصت أبراج المدينة وأسوارها على المسلمين، فلجأ موسى إلى دبابة، وثبتوها تحت برج من أبراج السور العظيم المنبت، وجعلوا ينقبون الحجر حتى نبت عنه معاولهم، وكلت دونه عدتهم وسواه، وصادف القوط منهم غفالة، وأصابوا منهم غزوة، فاستشهد تحت الدبابة جماعة كبيرة من المسلمين، سقطوا تحت البحار العتيق العنيف، فسمى ذلك الموضوع "برج الشهداء".

وبلج موسى بن نصير إلى حسن الاحتيال حتى ينال بالخليل والدهاء، ما وقفت الأسوار والأبراج دون نيله بالقوة. فدعا أهل المدينة إلى السلم، وأعطى الأمان لمجاعة من أماثل القوم وأشرافهم بالمدينة ليخرجوا في عسكره ويفاضوه على الصلح. واحتال على أن يطلع عليهم في كل لقاء بوجه جديد. فقدلوا عليه أول يوم فإذا هو أبيض الرأس واللحيه وقد جلله المشيب، ولم يبرم معهم في ذلك اليوم أمرًا، وأمحلهم إلى الغد. .. فلما عاودوه في اليوم الثاني رآوه — وقد خضب شعره بالحناء — أحمر أشرق كأن شعره شعلة من ضيام. .. فعجبوها لذلك أشد العجب لأنهم لم يكونوا يعرفون الحجاب بالحناء. .. وفي اليوم الثالث عاودوه الإمام المفاوضة فإذا شعر رأسه وحيته أسود كفحة الليل الحالك. .. فازداد تعجبهم من هذه الحالات المتغيرة، وقالوا إنما نحن لا نقاتل قوامًا من
البشر، وإنما نقاتل خلقًا عجيبًا يتخ凤凰网 كيف شاءوا، ويتصرعون في كل صورة أحبوا!! لقد كان ملكهم أو أميرهم من يومين اثنين شيخًا أشيبًا، فصار شابا أسود الشعر! والرأي أن نهادنه، ونعطيه ما يطلب، فا لنا به طاقة، ولننا دونه قوة...!! وهكذا صالحوه، وألقوا إليه بأموالهم ونفائسهم وحليهم، وكان ذلك في يوم الفطر من سنة 94 هـ، فاجتمع بذلك للمسلمين عيدان عظيان... وجاءت إليه الأنباء وهو بحاردة أن أهل أشبيلية انتقضوا على المسلمين... فبعث إليها ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير بجيش أعاد فتحها... وأقر السلام فيها، ووتد فيها دعائم المسلمين... وأصبحت أسياه المدن الأندلسية مألوفة في آذان العرب الفاتحين، وعلى مدار ألسنتهم لكثرة تعاورهم عليها، وفتوحهم لها، فكانوا كل يوم يفتحون بلداً جديداً، فلما وصل ابن نصير إلى «سرقسطة» كان العطش قد نال منه، فاستحق مائها، فاستعذب مذاقه، وقال إنه لم يشرب بالأندلس أعدب منه، وسأل عن اسم ذلك النهر الذي منه هذا الماء... فذكروا له أن اسمه Gallego، فقال: إذن هذا نهر «جلق» (1)، وهذه غوطة دمشق، لأن البساتين التي تحدد بسرقسطة تشبه غوطة الشام إلى حد كبير...
غنائم الفتوح

10

جاءت إلى موسى بن نصير أنباء بأن طارق بن زياد قد توج في الجزيرة إلى أقصى حدود الشمالي، وكان بعد استيلائه على طليطلة قد تابع زحفه شمالاً، واخترق مملكتي ليون وقشتالة، حتى بلغ إسترقة، وأشرف على شواطئ أسبانية الشماليّة.

ولعل عوامل غيره قد حملت ابن نصير على أن يكتب إلى طارق بأن يتوقف عن التقدم خطوة وراء ما بلغه يوم انتصاره على الذريق، ولكن طارقا لم يدعه ومضى في الفتوح لا يزال بما أمره به موسى بن نصير.

ولعل موسى قد خشى على الجيش الذي تحت إمرة طارق أن يهلك في هذه البلاد الشاسعة أو يبعد كثيراً عن قواعده، فأمر طارقا بأن لا يتعدى قرطبة التي فتحت على يد مغيث.

ومهما يكن من أمر فقد غضب موسى على مولاه طارق غضباً شديداً لأنه خالف أمره، وبلغ في الفتح إلى غايته، ورمى ببنته إلى أبعد الأفاق في الأندلس من غير أن يحصل على إذنها.

وتقدم موسى يريد طارقاً وعلم طارق من ناحيته بورود ابن نصير.
إلى الأندلس وفتحه في البلاد فأقبل عليه يقدم إليه ولاه، فلمما وقعت عينه عليه نزل من على ظهر الجواد إعظاماً له، وإجلالاً لمقامه، وتقدم راجلاً يحييه، فلقيه موسى مغضباً معاتباً، وأغلظ له القول موجهاً له على مخالفة أمره، وعدم الوقوف عند الحد الذي أشار به.
قد يكون لهذا اللقاء الجاف الغليظ من موسى لمولاه طارق أثره في نفس الرجل الذي خاض بالمسلمين غزرات البحر لأول عهدهم بفتح الأندلس، ووطأ لهم أكناط الأرض الجديدة عليهم حتى دنا لهم بعيدها، وسهل أمامهم صعبها، ولكن المسلمين لا تتوفر كلمتهم على أى حال، فما بالهم وهم في أرض الأعداء الذين انزعوا بلادهم وسلطانهم؟ لقد سار الرجلان العظيان في بقية الفتوح جنبًا إلى جنب، بل رضى موسى عن طيب خاطر أن يجيء على أثر طارق بن زياد، يكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهده عاليه.
وكتب الله موسى بن نصير نصرًا مؤزراً عزيزاً في كل بلد حل به، وفي كل ولاية حملها، حتى أجهل الملاك من القوط بين يديه، وامتد في الفتوح وطارق معه حتى بلغ جبال البرانس التي تفصل بين أسبانية وبين أرض فرنسا التي كان يسميها مؤرخو العرب "الأرض الكبيرة".
وجزوع الفرنج أو سكان فرنسا لهذا الهجوم الذي لم يكن يخطر لمهم على بال، واجتمعوا لملتهم الأعظم شارل أو "قارلة" - كما تسميه
العرب وقالوا له: «أيها الملك العظيم! ما هذا الخزي الباقى في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أنوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل، وسلاحهم الضئيل!».

وقد ورد دعوة من نصير توجل في بلاد الأندلس، حتى بلغ برشلونة في شرق الأندلس، وبلغ مدينة أربونة في الجوف، ووصل إلى قادس في الغرب وجمع من بلاد الأندلس غنائم كثيرة، ونفائس لا يدركها الوصف. وكانت مغامرة ومغام وصلة طارق بن زياد مما لا يحصى كثرة، وما يدهش العقول ويحضر الألباب. وكان في جملة ذلك «المائدة العظيمة» بمدينة طليطلة، التي اقنعل ملوك الأندلس في صناعتها وتفخيمها حتى كان كل ملك جديد يضيف إليها شيئاً من طرائف الصناعة ونفائس الجواهر، زيادة على ما أضافه السابقون، حتى اشتهرت وطار ذكرها في العالم المعروف لذلك العهد، وخصها ملوك القوط بهذه العناية حتى لا يظهر في البلاد كلها شيء أعلى منها فناسة وأعلى قيمة. وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة، فيخطف بريقها الأبصار، لأنها كانت مصنوعة من خالص الذهب ونقي الفضة، وكان عليها أطواق من المؤلو، وأخرى من الياقوت. وثالثة من الزمرد، وهي مرصعة فيها بين ذلك بنفس الجواهر. وكانت الطنافس والأبسطة التي غنمها المسلمون مما يعجز البيان...
عن وصفه، وما فاق ما أصابوه من المغامم في فتح بلاد فارس أيام الخليفة عمر بن الخطاب. حتى كانت الطنيفة الواحدة توجد منسوجة بقضبان الذهب وأسلاكه، وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزرقاء، وكان البربر والعرب إذا وقعت لهم واحدة من هذه الطنافس لا يستطيعون حملها لكثرة ما تنظمه أسلاكها من الذهب والحجر الكريم. فكان يأتي الرجل من المسلمين فيضرب الطنيفة بالفأس ليقسمها مع شركائه في المغنم. وكان في مدينة طليطلة حين فتحها طارق من النخائر والأموال—غير المائدة العظيمة—ملا يحصى. فمن ذلك مائة وسبعون تاجًا من خالص الذهب الأحمر، مرصعة بالنرد وأصناف الحجارة الثمينة، وألف سيف مما كان يستعمله الملوك والأشراف، وقد رصعت مقابضها بنفس الجواهر، كما كلت أغماهها بأسلاك الذهب والفضة الملبسة باللالي. وكانت الدور واليواقيت تصادف الفاتحين بكثرة كأنها من الحصى لا من الجواهر، وكانت أواني الذهب والفضة شيئاً يفوق الوصف. ذلك كله كان بعض المغامم من مدينة واحدة، فما بالك بعشرات المدن، ومئات القصور التي دخلها الفاتحين واستولوا على ما فيها من طريف ونفيس؟ أما «المائدة العظيمة» فلها قصة لا بد من ذكرها هنا لأنها تكمل لنا ما حدث بين موسى بن نصر وطارق بن زياد، ولأنها كانت لما استعمله طارق ليوغر به صدر الخليفة سليمان بن عبد الملك.
على موسى بن نصير ...
حين النبي موسى بطارق ذلك اللقاء الغليظ الخشن الذي أشرنا إليه
طالب موسى بالمائدة وألح عليه في الطلب. فأتاح بها طارق، وقد خلع
من أرجلها رجلا واحدة وأخفاها عنده، فسأله موسى:
- أين الرجل الرابعة يا طارق؟
فأجاب طارق:
- لا علم لي بها، وهكذا أصيبتها يوم الفتح...
فأمر موسى بأن تصنع لها رجل من الذهب، ولكنها جاءت بعيدة
الشبه عن بقية الأرجل الثلاث الأصلية، ويظهر عليها أثر التعمل وزيداء
الصنعة. وظلت المائدة هكذا، حتى عاد موسى وطارق إلى دار الخلافة
الأموية بدمشق وكان من مناقشتهما وحدهما أمام الخليفة ما أثبت به
طارق أن الرجل الرابعة الأصلية معه، لأنها هي الدليل على أنه هو الذي
غنم المائدة العظيمة، لا موسى بن نصير...
نهاية البطل

إلى

لقد كانت همة موسى بن نصير في الفتح الأندلسي أبعد من أن تقف أمامها جبال البرانس التي تفصل بين فرنسا وأسبانيا. لقد كان في نيته أن يخترق هذه الجبال إلى ما وراءها من بلاد الفرنجة، وأن يستمر في طريقه إلى الشرق مخترقاً أوربة كلها من الغرب إلى الشرق حتى يبلغ القسطنطينية، ومن هناك يستمر في سيره حتى يعود ثانية إلى دار الخلافة بدمشق...

له ما أبعد هذه الهمة! وما أعلى هذه النفس التي تريد أن تخترق قارة بأكملها من الغرب إلى الشرق، وتخوض ما بين الأندلس والقسطنطينية في طريق لاحب طويل، وبين أمم لا تدين بالإسلام، لينشر فيها راية الدين، وكلمة التوحيد، ثم يتجاوزها عائداً إلى الشام ليبشر الخليفة بفتح مبين...

إن موسى بن نصير قد نسي وهو في نشوة الظهر والفتح العظيم أنه كتب إلى طارق يتوعده إن توغل في البلاد بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به! فهو الآن لا ينوي التوغل في الأندلس وحسب
بعد أن دانت كلها ما عدا جيلقيفة (١) ولكنه ينوى التوغل في أوروبا كلها ويجتزها من الغرب إلى الشرق محاذاً في سبيل الله ... وبيتها هو سبيله إلى جيلقيفة ليخضعها أولا ثم ينفذ منها إلى جبال البرانس للمضي في تنفيذ نيته إذ جاء «مغيث» الرومى رسول الخليفة الوليد ومولاه ، يأمره بالرجل ، لا عن جيلقيفة فحسب ، ولكن عن بلاد الأندلس كلها عاداً إلى الشام !.

واستطاع موسى بدهائه أن يتلطف مع رسول الخليفة «مغيث» وأن يغريه ويقنعه بالبقاء معه زمناً يترقبان المغامرة ! ونجح الإغراء مع مغيث وتبقي مع ابن نصير وأنجزا بعض الفتوح ، وغناه كثيراً من الغنائم ، ووسعا نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وبلغ حصن «بارو»، وحصن «لك» وجعلاه مركزاً لإرسال البعوث والسرايا .

ونسب «مغيث» المهمة التي أوفده الخليفة لها من استدعاء ابن نصير على عجل ! ونسب أنه موفد ليعيد موسى إلى الشام ويعود معه ، والخليفة هناك ينتظر عودتهما بفارغ الصبر ! وأرسل «الوليد» رسول آخر من الشام اسمه «أبونصر» . بعد أن استبطا موسى في الرجوع . وأوصاه بأن يزفعه ويلح عليه حتى يرجع ، وحمل معه كتاباً إلى موسى يوجبه ويعنفه ويأمره بالخروج من الأندلس على الفور .

(١) هي مملكة في أقصى الشمال الغربي من بلاد الأندلس .
استعد موسى للعودة إطاعة لأمر الخليفة، فركب البحر ومعه طارق والرسولان مغيث، وأبو نصر وغيرهم من اختيار الرجوع معهم.
ولم يترك موسى بلاد الأندلس الجديدة الفتح بغير وفلا وفاء ولا أمير، فاستخلف عليها ابنه عبد العزيز الذي كان أول أمير على الأندلس، لأن موسى وطارقا لم يتخذوا سريرا للإمبراطور ولا للسلطنة.
واتخذ الأمير عبد العزيز سريرا بالإمبراطورية في مدينة أشبيلية، فكانت بذلك أول عاصمة إسلامية عربية في ذلك الفردوس الحضمي...
عاد موسى إلى الشام سنة 95 ه قاصدا الخليفة الوليد بن عبد الملك، وكان يجري وراء الدنيا، بما احتلته من غنائم الأندلس وأموائها وأمتها ونزافتها، وكانت تحمل على العجلات أو على ظهور الرجال، ومعه فوق ذلك ثلاثون ألف رأس من السبايا ليقدمها إلى الوليد.
وكان سليمان بن عبد الملك آخاً للخليفة الوليد، وولياً للعهد من بعده، فلما علم أن موسى بن نصير اجتاز مصر إلى فلسطين في طريق عودته، وأثنى على مقربة من دمشق، طمع في أن يستخرج هذه الغنائم - التي بلغته انبارها- لنفسه، وحرص على أن لا تقع في يد أخيه الوليد الذي كان مريضاً في ذلك الحين. فكتب سليمان إلى موسى بن نصير يأمره بالتمهل في العودة، والتربص قليلاً، على أن يموت أخوه الخليفة الوليد قبل وصول موسى إلى دمشق، وحينئذ يقدم موسى على سليمان - الخليفة الجديد المنتظر!
في أول عهده بالخلافة، بتكل الغنائم الكثيرة، والسبايا الهائلة التي ما رؤى ولا سمع بمثلها في التاريخ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس، ويقولون إنه الخير الكثير، ومغنم الوفير جاء على عهده لا على عهد أخيه!

ولكن موسى بن نصير أبه ذلك، ومنعه من فعله دينه ووفاءه للوليد، وجد في السير عائدا حتى قدم على الوليد وهو حي لم تدركه المنيا بعد، فسلم إليه الأخناس والغنائم، والتحف والذخائر التي ارتجت لها أركان الدولة الأموية، واهتزت لها جنوبات العالم الإسلامي. واستقبلت الشام موسى بن نصير استقبال الملوك الفاتحين، ولو لم يكن على رأسه تاج ولا في يده صولجان.

وشاء الله أن لا يمكث الخليفة الوليد طويلًا بعد قدوم ابن نصير، فتوث أعدان استخلف أخاه سليمان بن عبد الملك!

إن سليمان الآن خليفة يأمر وينهى، ويلمك ويقحكم، وهو لا ينسى أن ابن نصير أبه عليه التعجيل بالعودة إلى دمشق، وقوت بذلك عليه أموالا ومغامات كثيرة كان يرجه لنفسه دون أخيه. وأخذ الحقد ينمو في نفس الخليفة سليمان على موسى بن نصير، ونسى له جهاده في سبيل الله، ونسى له الفتوح والمحاذم التي أضافها إلى دولة الإسلام. فأخذ يفنى في تعذيبه، ويبلغ في إهانته، وبلغ من ذلك أنه أمر بإقامته في الشمس الحارة اللافحة وافقا حتى كاد يهلك، واستصنى أمواله كلها، وقضى عليه
نغرامات عظيمة لا قبل له باحترامها ولا الوفاء بها .
واستطفع موسى بن نصير بيزيد بن المهلب لسكنائه من سليمان بن عبد الملك ليرفع عنه العذاب ، وليخفف الحملة عليه ، فلم يقبل إلا أن يبه له دمه ، أما الغرامه فلا سبيل إلى الخلاص منها ، وأبت المروعة العربية إلا أن تتمثل في يزيد بن المهلب ، فافتدى موسى بمال كثير قدره بعض المؤرخين يمليون دينار ... 

وقد كان في استطاعة موسى بن نصير أن يتفادى ذلك المصير الأليم كله بأن يبقى في الأندلس في موضعه من العزة والكرامة والجهاد ، فلا يجيب دعاء الوليد ، ولا يعرض لتوبيخه وتعنيفه وتهديده على الإبطاء في العودة ، كما لا يتعشر لأدبية سليمان الذي كان موسى وافقاً أن الخلافة صائرة إليه عما قريب . ولكن لم يفعل ، وتركه هنا يجيب عن هذا التساؤل بالحادثة التالية : 

سهر يزيد بن المهلب ليلة عند موسى بن نصير وهو في نكبته ، قال له :

- يا أبا عبد الرحمن ! كم عدد مواليك وأهل بيتك ؟
- هم كثير !
- أبلغون ألفا ؟
- ألفا ، وألفا ، وألفا إلى أن ينقطع النفس من العد !
- يا للعجب ! أنت وقومك على ما وصفت من العدد ، ثم ألتقت
بيذك إلى التهمكة، وأسلمت نفسك إلى معذبك؟ أفلا أقسمت في قرار عزك، ووضعت سلطانك، وامتنعت بكل الغنائم والسي الذي قدمت به؟ فإن أعطيت الرضا، وإلا كنت على عزك وسلطانك؟

وبعد هذا الحوار كان جواب موسى بن نصير:

«وَلَهَّنَّ لَو أُرَدَتْ ذَلِكَ لَمْ نَالْنَا مِن أَطْرَاقٍ طِرَفاً، وَلَكِنْ آثَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَمْ نَرْ الخَروْجَ عَن الطَّاعَةِ والْجَماعةَ»

* * *

لقد لقي موسى بن نصير من الجهاد في سبيل الله كثيراً، ولقي من العذاب في نكبتة مع الخليفة سليمان كثيراً. حتى لقد آلت حاله - حين طالب سليمان بالغرامة – إلى أن كان يطاف به على أحياء العرب في الحجاز ليسألهم من المال ما يفتلك به نفسه، ويدفع به الغرم عنه . . ولقد ذاق الحلو والمر، ورأى من الحياة نعيمها وبيسها، فلم يتغير إيمانه، ولا وعَت نفسه، لأنها نفس مؤمن يرى الجزع من غير صفات المؤمنين.

وبقي لموسى بن نصير بعض غلمانه ممن كان وفياً له في الضراء، كما كان معه في السراء، فروى لنا ختام ذلك البطل الفاتح العظيم قائلاً:

«لقد كنا نطور مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب، فواعد بنينا، وآخر يحتسب عنا، ولربما دفع علينا – على جهة الرحمة – الدروهم والدرهمين، ففرح بذلك الأمير، ليدفعه إلى الموكلين بحراسته، فيخوفوا
عندى من العذاب. ولقد كنا قبل ذلك - أيام الفتوح العظيم بالأندلس - نأخذ الأسلاسل من قصور ملوك القوط وأمرائهم، فتنزع منها ما يكون فيها من الذهب والفضة فربما به، ولا ننشاغل بجمعه، ولا نأخذ إلا الدر الفاخر، والخور العين، فسبحان الذي بيده العز والذل، والغني والفقر...

***

لم يعش موسى بن نصير بعد عودته إلى الشام أكثر من عامين قضاهما في عذاب شديد، وتعرض فيما لآذى الخليفة السيدة في شخصه وفي أسرته، حتى لقد دس من أهل الأندلس من قتل ابنه عبد العزيز الذي استخلفه هناك أميرا على الأندلس كما سبق القول. وهذه في "وادي القرى" بأرض الحجاز، وفي سنة 97 من الهجرة تبنا موسى بن نصير بموته، ونعى إلى الدنيا نفسه حين قال لبعض إخوانه قبل أن يموت بيوم واحد: "ليومين بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والغرب".

ومما جاء "بعد غد" حتى نُعى إلى الإسلام والمسلمين بطل من أكبر الفاتحين...
<table>
<thead>
<tr>
<th>الفهرس</th>
<th>صفحة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>المولد والنشأة</td>
<td>5</td>
</tr>
<tr>
<td>موسى بن نصير في إفريقية في بلاد البربر</td>
<td>10</td>
</tr>
<tr>
<td>فلورندة الحسناء</td>
<td>15</td>
</tr>
<tr>
<td>في الطريق إلى الأندلس</td>
<td>27</td>
</tr>
<tr>
<td>طارق بن زiad</td>
<td>35</td>
</tr>
<tr>
<td>طلسم بيت الحكمة</td>
<td>42</td>
</tr>
<tr>
<td>الملك الغريق</td>
<td>52</td>
</tr>
<tr>
<td>ابن نصير في الأندلس</td>
<td>59</td>
</tr>
<tr>
<td>غنائم الفتوح</td>
<td>68</td>
</tr>
<tr>
<td>نهاية البطل</td>
<td>73</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>78</td>
</tr>
</tbody>
</table>
تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف بمصر سنة 1957